استدراكات محمد عبده البلاغية

في تفسير المنار

د/ خالد أحمد محمد مدرس البلاغة والنقد في الكلية

مقدمة

الحمد لله المتفضل على الإنسان بنعمة البيان، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان محمد بن عبد الله(ﷺ) الذي آتاه الله جوامع الكلم ، وأنزل عليه القرآن تحدياً للإنس والجان ، فأخرس ببيانه ألسنة العرب وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان.

وبعد :

فإنه من المعلوم الذي لاشك فيه أنه لم يحظ كتاب من الكتب السماوية بشيء – ولو يسيراً– مما حظي به القرآن الكريم ، فقد حظي منذ نزوله باهتمام صفوة العلماء ، حيث تعلقت بصائرهم وأبصارهم بأهدافه ومراميه ، فهبوا يتدارسون آياته ، ويتأملون أسلوبه ويتدبرون معانيه ، بغية أن يدركوا شيئاً من أسراره ، ولكنهم وجدوه منهلاً لا يغيض وثراً لا ينضب ، وأنهم مهما حاولوا فسيظل أبداً مطمحاً لا يدرك ، وغاية لا تنال.

ومن يطالع تفسير المنار لرشيد رضا الذي جمع فيه أقوال محمد عبده في التفسير يجد أن الشيخ محمد عبده يتمتع بذائقة بيانية رفيعة ودراية واطلاع على كثير من آراء العلماء السابقين ، وقد حرص على الوقوف على الصحيح والصائب من تلك الآراء ، ودفع كل ما من شأنه أن يتعارض مع إعجاز القرآن ويخل ببلاغته ، ولذلك كانت هذه الدراسة [استدراكات محمد عبده البلاغية في تفسير المنار] ، وهي مسائل تستحق البحث والدراسة ؛ ليتبين مدى أصالة صاحبها في الدرس البلاغي.وقد تناولت هذه الاستدراكات بالشرح والتحليل والمناقشة والترجيح ما أمكن ، محكماً الأصول البلاغية التي أقرها الأئمة من العلماء.

ومع ثقتي بأن هذا طريق وعر المسلك ، صعب المرتقى قد يتعذر على مثلي اجتيازه ، إلا أني أخلصت المحاولة ،مستمداً من الله العون راجياً منه المثوبة.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد،وخمسة مباحث،وخاتمة، وفهارس للمراجع .

أما المقدمة فقد اشتملت على أهمية البحث ودوافعه وخطة البحث.

وأما التمهيد فقد اشتمل على ترجمة موجزة للشيخ محمد عبده ، وبيان لبعض مؤلفاته وتفسيره لبعض من القرآن الكريم.

وأما مباحث الدراسة فكانت على النحو الآتي:

المبحث الأول : استدراكات تتعلق بالدقة في استخدام المفردات.

أولاً : استدراكات على التسوية بين بعض الكلمات في الدلالة.

ثانياً : استدراكات على نكات لاختيار لفظ دون آخر.

ثالثاً : استدراكات على القول بزيادة بعض حروف المعاني والكلمات في القرآن الكريم.

المبحث الثاني : استدراكات تتعلق بالتكرار.

المبحث الثالث : استدراكات تتعلق بالتقديم والتأخير.

المبحث الرابع : استدراكات تتعلق بالتناسب.

المبحث الخامس : استدراكات متنوعة.

والخاتمة : تتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها.

وأخيراً أضرع إلى الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به ، وأن يعصمنا من زلات الفكر وزلات القلم (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) البقرة:٢٨٦ وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله رب العالمين.

د/خالد أحمد محمد

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

تمهيد

تعريف بالشيخ محمد عبده

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله التركماني ، من أسرة تنتمي إلى التركمان ، فهو تركماني الأصل بلا خلاف ، جاء جده إلى مصر وسكن فيها ، ولا يعرف سبب مجيء جده إليها[1].

والشيخ محمد عبده أحد الشخصيات التي برزت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وكان له أثر في الحياة المعاصرة ، وشأن بين الناس .

وهو من مشاهير العلماء ورجال السياسة ودعاة الإصلاح..... ، شارك في الثورة ، ونفي من وطنه[2] واشتغل بالتدريس ، والقضاء ، والفتيا ، وكلها مناصب عالية في الدولة.

ولد الشيخ محمد عبده بـ [حصة شبشير] من قرى إقليم الغربية ، ولكنه شب وترعرع في قرية أخرى تسمى [محلة نصر] من قرى مركز [شبراخيت] بإقليم البحيرة حيث عاش والده ، وعاشت أسرته[3].

مؤلفاته:

له العديد من المؤلفات في علم الكلام، والفلسفة، والمنطق، والتفسير، والبلاغة، والأدب، والتاريخ، والاجتماع، ومنها:

- رسالة الواردات ، وهي رسالة في الكلام على طريقة الصوفية.

---

(١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده – تحقيق وتقديم الدكتور/محمد عمارة٢/٣٢٤– دار الشروق – الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ –٢٠٠٦ م.

(٢) في سنة١٨٨١ م قام أحمد عرابي – ضابط في الجيش المصري– بثورة على الخديوي توفيق،عرفت فيما بعد بالثورة العرابية– انظر الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي لعبد الرحمن الرافعي– مكتبة النهضة العربية القاهرة– الطبعة الثانية ١٩٤٩ م.

(٣) انظر كتاب:عبقري الإصلاح والتعليم – الإمام محمد عبده– تأليف الأستاذ:عباس محمود العقاد صـ:٦٥ – دار الكتاب العربي لبنان ١٩٧١ م.

- رسالة في وحدة الوجود.
- حاشية عقائد الجلال الدواني.
- شرح البصائر النصيرية.
- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية.
- رسالة التوحيد.
- تفسير سورة العصر.
- تفسير جزء عم.
- فلسفة الاجتماع والتاريخ.
- شرح مقامات بديع الزمان.
- شرح نهج البلاغة.

نظام التربية والتعليم في مصر.[1]

تفسير المنار:

من آثار الشيخ محمد عبده في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر الشريف على تلاميذه ومريديه تحقيقاً لرغبة تلميذه رشيد رضا كما هو مذكور في تفسير المنار[2].

وقد ابتدأ الشيخ محمد عبده دروس التفسير في غرة المحرم من سنة ١٣١٧ هـ ، ففسر سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران وأول سورة النساء ، وتوقف عند قوله تعالى من هذه السورة : " ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً"[3] ، وكان ذلك في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ هـ.

(١) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده – تأليف : رشيد رضا -٢/١٨٤- الطبعة الأولى ١٣٢٤هـ.

(٢) تفسير المنار ١/١٢

(٣) النساء:١٢٦

وهذه الدروس تعد أثراً من آثاره في التفسير، وإن لم يدون هو شيئاً منها ، بل قيدها عنه طلابه وخاصة محمد رشيد رضا ، الذي يوضح ذلك في مقدمة تفسير المنار، يقول : " وكنت أكتب في أثناء الدروس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله، وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيض ، وأمده بكل ما أتذكره في وقت الفراغ ، ولم يلبث أن اقترح علي بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد الإسلامية ، ومن الحريصين على حفظه من الإخوان بمصر أن أنشره في المنار، فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ هـ ، وذلك في المجلد الثالث من المنار، وكنت أولاً أطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة ، أو حذف كلمة أو كلمات ، ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما يراه قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب ، بل معجباً به ، على أنه لم يكن كله نقلاً عنه ومعزواً إليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه ، اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها ؛ لذلك كنت أعزو إليه القول المنقول عنه ، إذا جاء بعد كلام لي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لي بعده قلت في بدئه : (أقول).ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه إما قبل طبعه وهو الغالب وإما بعده وهو الأقل ، لم أكن أرى حرجاً فيما أعزوه إليه مما فهمته منه ، وإن لم أكن كتبته عنه في مذكرات الدرس ؛ لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم، وصدق العزو[1].

(١) تفسير المنار ١/١٥

المبحث الأول

استدراكات تتعلق بالدقة فى استخدام المفردات

أولاً: استدراكات على التسوية بين بعض الكلمات في الدلالة.

كل كلمة لها غرض ودلالة تصورهما حروفها ، واختلاف الكلمة حتماً يؤدى إلى اختلاف البيان.

ولذلك قد جعل الخطابي عمود البلاغة هو الدقة في اختيار الكلمات ووضعها في موضعها اللائق بها ، يقول :" ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به , الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"(١).

وهذا يتفق مع ما رآه الشيخ /محمد عبده – رحمه الله – إذ وقف أمام بعض المفردات القرآنية التي ظن البعض أنها متساوية مع أخرى في الدلالة ، واستنكر ذلك غاية الاستنكار موضحاً مناسبة اللفظ القرآني لسياقه دون غيره ، ومن ذلك:

استدراكه على التسوية بين (الرحمن)و(الرحيم) فى الدلالة.

ذكر الطاهر بن عاشور أنه ينسب إلى قطرب أن" الرحمن " و"الرحيم" يدلان على معنى واحد من الصفة المشبهة فهما متساويان ، وجعل الجمع بينها من قبيل التوكيد اللفظي ، وذكر الطاهر – أيضاً– أن الزجاج مال إلى هذا القول (٢).

وقد فهم الطاهر هذا القول عن الزجاج من قوله:" وقوله: عز وجل (الرحمن (الرحيم) هذه الصفات لله – عز وجل – معناه فيما ذكر أبو عبيدة ذو الرحمة"(٣).

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي : ٢٩ – ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن – تحقيق/محمد خلف الله و د/محمد زغلول سلام – ط دار المعارف – الطبعة الثانية ١٣٧٨ هـ – ١٩٦٨ م.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/٧٢ – دار سحنون للنشر والتوزيع تونس١٩٩٧ م.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج١/٤٨ــ تحقيق د/عبد الجليل عبده شلبي– دار الحديث القاهرة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥ م.

وإلى هذا القول ذهب الجوهري يقول: " وهما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرها في اللغة : نديم وندمان وهما بمعنى ، ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد " [1] وكذلك ذهب السيوطي يقول : " الرحمن الرحيم : أي ذي الرحمة ، وهى إرادة الخير لأهله" [2] وقد عارض الشيخ محمد عبده هذا القول ، واشتد فى إنكار الترادف ، وبين أن الكلمتين المترادفتين الواردتين على سبيل التوكيد لابد أن يكون فى كل منهما معنى مغاير لما فى الأخرى يحقق فائدة .

فالتوكيد عنده لا يعنى أن تكون دلالة الكلمة المؤكِدة هي ذاتها دلالة الكلمة المؤكَدة.

يقول: "وقد مشى الجلال فى تفسيره ، وتبعه الصبان على أن (الرحمن) و(الرحيم) بمعنى واحد، وأن الثاني تأكيد للأول ، ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم ، وما هي إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها ".

ويقول أيضاً : "وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه : إن فى القرآن كلمة تغاير أخرى ، ثم تأتى لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها في نفسها معنى تستقل به ".

ويضيف: " نعم قد يكون في معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تقريراً أو إيضاحاً ، ولكن الذي لا أجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير بحيث تكون من قبيل ما يسمى بالمترادف فى عرف أهل اللغة ، فإن ذلك لا يقع إلا فى كلام من يرمى فى لفظه إلى مجرد التنميق والتزويق ، وفى العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها " [3].

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري٥/١٩٢٩ - تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين- الطبعة الرابعة ١٩٩٠م.

(٢) الجلالين١/٢

(٣) المنار١/٤٦ ، والأعمال الكاملة للإمام /محمد عبده٤/٢٥٦

ولذلك يقول :" وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر , ولا يكون الثاني مؤكداً للأول"[١].

ولعل مما يؤيد ما رآه الشيخ /محمد عبده من فارق بين اللفظتين تقديم (الرحمن) على (الرحيم)؛ وذلك بناء على ما ذكره هو- أيضاً- من تعليل جيد لهذا التقديم.

يقول : " فإذا سمع العربي وصف الله - جل ثناؤه- بالرحمن ، وفهم منه أنه المفيض بالنعم فعلاً لا يعتقد منه أن الرحمن من الصفات الواجبة له دائماً ؛ لأن الفعل قد ينقطع إذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً ، فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ، ويعلم أن لله صفة ثابتة هي صفة الرحمة التي عنها يكون أثرها ، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه" [٢].

استدراكه على التسوية بين (اشترى)و (استبدل) فى الدلالة.

من استدراكات الشيخ /محمد عبده التي تدل على وجود الفارق بين المترادفات ، وعدم الاستواء المطلق بين الكلمات المتقاربة المفهوم استدراكه على تفسير الاشتراء بالاستبدال في قوله تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) [٣].

وقد ذهب إلى هذا القول العديد من أئمة المفسرين كالبيضاوي[٤]، والرازي[٥]، وأبوحيان [٦]، والسيوطي [٧]، وأبو السعود [٨]، والشوكانى[٩].

---

(١) المنار ١/٤٧ ، والأعمال الكاملة ٤/٢٦-٢٧

(٢) المنار ١/٢٧ ، والأعمال الكاملة ٤/٢٧

(٣) البقرة :١٦

(٤) ينظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي ١/١٨١دار الفكر العربي.

(٥) التفسير الكبير للرازى٢/٦٥ دار الكتب العربية بيروت١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م- الطبعة الأولى.

(٦) البحر المحيط لأبوحيان الأندلسي١/١٩٥- تحقيق:أحمد عبد الموجود وآخرون- دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٢ هـ -٢٠٠١م.

(٧) الجلالين ١/٥

(٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبو السعود١/٤٨ دار إحياء التراث العربي -بيروت.

(٩) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني١/٤٥ ـ دار الفكر بيروت.

يقول الشيخ محمد عبده:"وقد فسروا (اشتروا) باستبدلوا ، وهو غير سديد ؛ لأن بين اللفظين فضلاً فى المعنى" [١].

وقد وضح شيئاً من منهج القرآن في استخدام الكلمات المتقاربة الدلالة بقوله : "وكلنا نعتقد – والحق ما نعتقد – أن القرآن فى أعلى درج البلاغة ، ولا يختار لفظاً على لفظ من شأنه أن يقوم مقامه ، ولا يرجح أسلوباً على أسلوب يمكن تأدية المراد به إلا لحكمة فى ذلك وخصوصية لا توجد فى غير ما اختاره".

ويبين الفارق بين الاشتراء والاستبدال فيقول : " ووجه اختياره (اشتروا) على استبدلوا أن الأول أخص من وجهين:

أحدهما: أن الاستبدال لا يكون شراء إلا إذا كانت فيه فائدة يقصدها المستبدل منه، سواء أكانت الفائدة حقيقية أم وهمية.

وثانيهما : أن الشراء يكون بين متبايعين بخلاف الاستبدال ، فإذا أخذت ثوباً من ثيابك بدل آخر يقال : إنك استبدلت ثوباً بثوب" [٢] .وما ذكره الشيخ محمد عبده من فارق يتوافق مع ما ذكره الراغب إذ يقول : "ويجوز الشراء والاشتراء فى كل ما يحصل به شيء نحو : (إن الذين يشترون بعهد الله)[٣] (لا يشترون بآيات الله)[٤] (اشتروا الحياة الدنيا)[٥](اشتروا الضلالة)[٦]فقد ذكر ما اشترى به "[٧] بينما قال فى مادة (بدل) : " الإبدال والتبديل والاستبدال : جعل شيء مكان آخر"[٨].

---

(١) المنار ١٦٦/١ والأعمال الكاملة ٧٧/٤.

(٢) نفس المرجعين السابقين والصفحتين.

(٣) آل عمران:٧٧

(٤) آل عمران:١٩٩

(٥) البقرة:٨٦

(٦) البقرة :١٦، ١٧٥

(٧) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ٢٦/١ تحقيق محمد سيد كيلانى – دار المعرفة – لبنان

(٨) السابق ٣٩/١

ويبرز توافق الدلالة اللغوية لـ (اشترى) مع الهدف من الآية الكريمة فيقول: " فالمعنى الذي تؤديه الآية : أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم بإزائها يعتقدون الحصول عليها من الناس ، فهو مفاوضة بين طرفين يقصد بها الربح ، وهذا هو معنى الاشتراء والشراء ، ومثلها البيع والابتياع ، ولا يؤديه مطلق الاستبدال"(١).

استدراكه على التسوية بين الكسب والاكتساب في الدلالة.

نقل عن الواحدى أن الكسب والاكتساب معناهما واحد ، يقول الرازي : "وقال الواحدى : الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد لا فرق بينهما"(٢).

وفرق الزمخشرى بينهما بأن الكسب خاص بالخير والاكتساب بالشر ، يقول موضحاً الداعي إلى التفريق بينهما: " فإن قلت: لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب قلت فى الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد فجعل لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال"(٣)

وهذا هو الرأي الذي نهجه الشيخ محمد عبده، يقول تعليقاً على قوله تعالى: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)(٤) " قيل: إن الكسب والاكتساب واحد فى اللغة ، نقل عن الواحدى ، وقيل : إن الاكتساب أخص واختلفوا فى توجيهه ، وما قاله الزمخشرى هو الصواب ، وهو أن الفرق بينهما كالفرق بين عمل واعتمل ، فكل

---

(١) المنار١/١٦٦، والأعمال الكاملة٤/٨٧

(٢) التفسيرالكبير٧/١٢٣ ، وينظر البحر المحيط٢/٣٨١ ، واللباب فى علوم الكتاب لابن عادل الدمشقى٤/٥٣٤ تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض – دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩ هـ –١٩٨٩ م

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى١/٣٥٩ تحقيق:عبد الرازق عبد المهدي– دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٤) البقرة:٢٨٦

من اعتمل واكتسب يفيد الاختراع والتكلف ، فالآية تشير أو تدل على أن فطرة الإنسان مجبولة على الخير، وأنه يتعود الشر بالتأسي ، والمعنى : أن لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر"[١].

وفى تقديري أن الأولى أن يقتصر فى الفارق بينهما على أن يقال : إن الاكتساب يدل على تحقق الفعل على جهة التكلف والاعتمال والكسب على نقيض ذلك ، فلا يجوز أن يخصص أحدهما بالشر والآخر بالخير كما ذهب إلى ذلك الزمخشرى ومحمد عبده.

ويدل على هذا النصوص القرآنية التي نقلها العديد من المفسرين ، والتي تنقض ما ذهب إليه الزمخشرى ومحمد عبده.

يقول ابن عادل : " وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب فى مورد واحد ، قال تعالى: (كل نفس بما كسبت رهينة)[٢] وقال تعالى : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها)[٣] وقال تعالى: (بلى من كسب سيئة)[٤] وقال تعالى : (بغير ما اكتسبوا)[٥] فقد استعمل الكسب والاكتساب فى الشر"[٦].

ومن خلال هذا الفارق وحده يبحث عن سر استخدام أحد البناءين دون الآخر فى الاستعمالات البليغة.

والذي خصص الكسب فى قوله تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) بالخير هو اللام الدالة على الملك المؤذن بالانتفاع ، والذي خصص الاكتساب فى الآية بالشر هو (على) الدالة على الاستعلاء المؤذن بالضرر.

---

(١) المنار٣/١٤٦ ، والأعمال الكاملة٤/٧٦١

(٢) المدثر:٣٨

(٣) الأنعام:١٦٤

(٤) البقرة:٨١

(٥) الأحزاب:٥٨

(٦) اللباب لابن عادل٤/٥٣٤

والفارق الذي اقتصرت عليه يدل فى الآية السابقة على مزيد فضل الله على عبده "ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى سعى ، وفى جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام"[١].

وهكذا أصاب الشيخ محمد عبده فى التفرقة بين البناءين ، وفى تخصيص الاكتساب بالتكلف والاعتمال ، والكسب بخلاف ذلك ، ولكن متابعته الزمخشرى جعلت رأيه لا يطرد كما دلت النصوص القرآنية السابقة .

ثانياً: استدراكات على نكات لاختيار لفظ دون آخر

وقف الشيخ محمد عبده أمام بعض الآراء التي توجه لاختيار كلمة دون أخرى مناقشاً لها ومصححاً بما يدل على ذوق وقريحة منه ، ومن ذلك: استدراكه على نكتة لاختيار لفظ (حافظوا) دون احفظوا في قوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)[٢] .

ذهب الرازي إلى أن وجه اختيار لفظ المحافظ فى الآية السابقة دون الحفظ ، وذلك لأن هذا البناء يدل على المشاركة فى الحفظ[٣] وتابعه فى ذلك النيسابوري[٤].

وهذه المحافظة تكون بين العبد والرب ، كأنه قيل له : احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذي أمرك بالصلاة ، أو المحافظة تكون بين المصلى والصلاة بأن تحفظه الصلاة عن المعاصي أو البلايا أو المحن أو تشفع لمصليها [٥]. وأما الشيخ محمد

(١) شفاء العليل لابن القيم الجوزية١/١٢٠ تحقيق محمد بدر الدين الحلبي – دار الفكر بيروت١٣٩٨هـ .

(٢) البقرة:٢٣٨

(٣) التفسير الكبير:٦/١٢٥

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري- ١/٦٥٢ ـ تحقيق:زكريا عمران- دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٦هـ -١٩٩٦ م .

(٥) المنار٢/٤٣٦ ، والأعمال الكاملة٤/٦٦٩

عبده فيرى فى داعي هذا الاختيار رأياً آخر، إذ يقول : "قال:حافظوا على الصلوات ولم يقل احفظوها ؛ لأن المفاعلة تدل على المنازعة والمقاومة"(١).

وما ذكره – رحمه الله– دقيق ؛ وذلك لأن دلالة المفاعلة على المنازعة والمقاومة تناسب التعبير عن الدعوة إلى درء ما يحجز المصلى عن الصلاة من شواغل ، وقوة هذه الشواغل ، وضرورة التغلب عليها على الرغم من قوتها.

ويفند الشيخ محمد عبده التعليل السابق فيقول : " ولا يظهر قول بعضهم : إن المفاعلة للمشاركة ، لأن الصلاة تحفظه كما يحفظها ، إلا لو كانت العبارة حافظوا الصلوات ، ولكنه قال: على الصلوات ، أي اجتهدوا فى حفظها والمداومة عليها"(٢).

وما ذكره من دلالة (على) على الاجتهاد فى المحافظة على الصلاة والمداومة عليها هو فهم صحيح يتسق مع ما يقتضيه الوصول إلى الاستعلاء– الذي تدل عليه (على)– من جهد وبذل طاقة.

استدراكه على نكتة لإفراد(السمع) وجمع (الأبصار) فى القرآن.

حاول العلماء أن يقفوا على السر فى إفراد السمع وجمع البصر فى القرآن ، وأول آية نظر فيها العلماء حول هذه القضية قوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)(٣).

وقد ذهب الزمخشري وابن عطية والبيضاوي والقرطبي والزركشي والنيسابوري وابن عادل الدمشقي وأبو الليث السمرقندي وأبو السعود والشوكاني إلى أن إفراد السمع لأنه مصدر والمصدر لا يجمع ؛ لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير، فلا يحتاج فيه إلى التثنية والجمع ، يقال : رجلان صوم ، ورجال صوم

---

(١) المنار٢/٤٣٦ ، والأعمال الكاملة٤/٦٦٩

(٢) المنار٢/ ٤٣٧، والأعمال الكاملة٤/٦٦٩

(٣) البقرة:٧

فروعي الأصل[1].وهذا القول لم يقبله الشيخ محمد عبده ، وقد ضعفه بقوله: " وأنا أرى فى مسألة الجمع والإفراد رأياً آخر , إذ صح ما قيل فإن البصر - أيضاً- مصدر فلماذا جمعه؟[2].

ولكن هذا التعليل لإسقاط هذا الرأي يمكن أن يرد عليه بأن يقال على نحو ما ذكره الزركشي : " أن السمع غلب عليه المصدرية بخلاف البصر فإنه اشتهر فى الجارحة، وإذا أردت المصدر قلت : أبصر إبصاراً ، ولهذا لما استعمل الحاسة جمعه، قال تعالى: (يجعلون أصابعهم فى آذانهم)[3] وقال: (وفى آذاننا وقر)[4]"[5].

والأولى أن يقال كما ذكر الألوسي أن هذا الوجه الذي ذكروه مصحح للإفراد لا مرجح[6].

وعلى الرغم من هذا تبقى اللطيفة البلاغية للشيخ محمد عبده حول إفراد السمع وجمع الأبصار نكتة جيدة تناسب الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

---

(١) ينظرالكشاف١/٩٢، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١/١٠٤، تحقيق:عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية بيروت١٤١٣هـ ١٩٩٣م الطبعة الأولى ، وتفسير البيضاوي١/١٥٤، وتفسير القرطبي١/١٩٠، والبرهان في علوم القرآن للزركشي٤/١٩- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة بيروت ١٣٩١هـ ، وتفسير النيسابوري١/١٥٣، واللباب لابن عادل ١/٢٢٣، وبحر العلوم لأبو الليث السمرقندي١/٥١- تحقيق:د/محمود مطرجي- دار الفكر بيروت، وتفسير أبو السعود١/٥٦، وتفسير الشوكاني١/٣٩.

(٢) المنار١/١٤٤ والأعمال الكاملة٤/٦٤

(٣) البقرة:١٩

(٤) فصلت:٥

(٥)البرهان فى علوم القرآن٤/١٩

(٦) روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسى١/١٣٦ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

يقول – رحمه الله– : " والذي أراه أن العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات ، فليس الناس فيه سواء ، فجمع لاختلاف الناس فيه وأنواع تصرفهم في وجوهه ، بخلاف السمع فإن أسماع الناس تتساوى في إدراك المسموعات ، فلا تتشعب تشعب العقول في إدراك المعقولات ، وأما الأبصار فهي مثل العقول في التشعب ، وأعظم معين للعقول في إدراكها ؛ لأن أنواع المبصرات كثيرة فتعطي للعقل مواد كثيرة ، والسمع لا يدرك إلا الصوت..... فالعقول والأبصار بمنزلة ينابيع للعلم مختلفة ، بخلاف السمع فإنه ينبوع واحد لا اختلاف فيما يصدر عنه"[1]

ثالثاً: استدراكات تتعلق بالقول بزيادة بعض حروف المعاني والكلمات في القرآن.

الزوائد كلمات – وأكثرها حروف – رأى بعضهم أنها لا حاجة لها من حيث الإعراب ، فإذا أسقطت بقي الكلام تاماً كالباء في خبر ليس ، حذفها ووجودها سواء ، تقول : أليس الله قادراً ، فهي إنما يؤتى بها لتأكيد الكلام وتقويته.فالزيادة مصطلح نحوي " وإنما حكموا بزيادة هذه الحروف ، لأن التوكيد الذي أفادته ليس من معانيها التي وضعت لها أصلاً ، فضلاً عن أن بعضها لا يحدث أثراً إعرابياً في تركيبه ، فما زوها بذلك المصطلح"[2]وأكثر النحاة والمفسرين – كما سيأتي – قال بوجود كلمات وحروف زائدة في كتاب الله تعالى ، ونفى ذلك آخرون ، ولست في موضع الحصر لكل طائفة.

وقد عبروا عن الحرف الزائد بقولهم : زائد ، وصلة ، وحشو، ولغو ، قال ابن يعيش: " والصلة والحشو من عبارات الكوفيين ، والزيادة والإلغاء من عبارات البصريين"[3]. ولا شك أن " ما سموه زائداً أو صلة عندما نمعن النظر فيه ، فإننا لا نتردد أي تردد ولا نرتاب أدنى ريب بأن هذا الذي سموه زائداً لم يكن للتأكيد فحسب ، ولم يكن كله ليجمل به الإيقاع فقط.....إنما هو بعد ذلك كله أمر اقتضاه

---

(١) المنار ١/١٤٤، والأعمال الكاملة٤/٦٤

(٢) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية :٣١٢– د/أحمد سعد محمد– مكتبة الآداب.

(٣) شرح المفصل لابن يعيش:٨/١٢٨، مكتبة المتنبي بالقاهرة.

المعنى ، وحتمته الحكمة البيانية والحكمة العقلية كذلك ، فلو ذهب من الكلام لذهب جزء جوهري من المعنى"[1].

وهذه بعض من استدراكات الشيخ محمد عبده على أقوال بالزيادة لبعض الحروف والكلمات في القرآن الكريم تدلل على أن لكل كلمة في النظم القرآني موقعها الذي لا غناء عنه.

استدراك على القول بزيادة(مثل) في قوله تعالى:(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به)[2].

ذهب الكثير من العلماء إلى جواز القول بزيادة (مثل) في الآية السابقة كابن عطية، والبيضاوي، والرازي، وأبو حيان، وابن القيم، والنيسابوري، والسيوطي، وأبو السعود، والشوكانى[3] وهى عندهم نظير (مثل) في قوله تعالى:(وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله)[4] وقوله تعالى:(ليس كمثله شيء)[5].

ويعضد القول بالزيادة عندهم قراءة ابن مسعود (بما آمنتم به) وقراءة أبى (بالذي آمنتم به).

وقد رفض الشيخ محمد عبده- رحمه الله- القول السابق واشتد فى رفضه ، يقول رشيد رضا : " استنكر - أي محمد عبده - ذلك واستكبره كعادته ، فإنه يخطئ كل من يقول : إن فى القرآن كلمة زائدة أو حرفاً زائداً".

---

(١) سلامة الحرف من الزيادة والحذف ـ د/فضل حسن عباس صـ :٣٠ - بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بالكويت-السنة الرابعة- العدد التاسع،ربيع الآخر١٤٠٨هـ .

(٢) البقرة: ١٣٧.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية١/٢١٥ ، وتفسير البيضاوى١/٤١١ ، والتفسير الكبير للرازى١/٢٨ ، والبحر المحيط لأبى حيان ١/٥٨٢ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ٤/١٠١١ - تحقيق : هشام عبد العزيز عطا وآخرين- مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة المكرمة١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، وتفسير النيسابورى١/١٤٧، والجلالين١/٢٨ ، وتفسير أبو السعود١/ ١٦٧ ، وفتح القدير للشوكانى١/١٤٧ .

(٤) الأحقاف:١٠

(٥) الشورى:١١

وقد أبان عن فائدة لفظ (مثل) فى الآية السابقة من وجهة نظره بقوله :" إن لمثل – هنا– معنى لطيفاً ونكتة دقيقة ، وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون بالله وبما أنزل على الأنبياء ، ولكن طرأت على إيمانهم بالله نزغات الوثنية وأضاعوا لباب ما أنزل على الأنبياء ، فلما بين الله لنا حقيقة دين الأنبياء ، وأنه واحد لا خلاف فيه ولا تفريق ، وأن هؤلاء الذين يدعون إتباع الأنبياء قد ضلوا عنه فوقعوا في الخلاف والشقاق، أمرنا – سبحانه وتعالى – أن ندعوهم إلى الإيمان الصحيح بالله وبما أنزل على النبيين والمرسلين بأن يؤمنوا بمثل ما نؤمن نحن به لا بما هم عليه.....فالذي يؤمنون به في الله ليس مثل الذي نؤمن به ، فنحن نؤمن بالتنزيه وهم يؤمنون بالتشبيه ، وعلى ذلك القياس ، فلو قال : فإن آمنوا بالله وبما أنزل على أولئك النبيين وما أتوه فقد اهتدوا ، لكان لهم أن يجادلونا بقولهم : إننا نحن المؤمنون بذلك دونكم ، ولفظ (مثل) هو الذي يقطع عرق الجدل"[1].وفى واقع الأمر أن ما ذكره الشيخ محمد عبده – رحمه الله – لا يصح إطلاقاً أن يكون تعليلاً لمجيء (مثل) فى الآية السابقة ، ولكنه تعليل لإيثار قوله :(بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) على أن يقال : فإن آمنوا بالله وبما أنزل على أولئك النبيين وما أوتوه فقد اهتدوا.

على أنه يمكن أن يفهم من كلام الشيخ محمد عبده وجه آخر لمجيء (مثل) فى الآية الكريمة ، وهذا الوجه هو أصح مما ذكره سلفاً ، إذ يقول عقب ما سبق : " على أن المساواة فى الإيمان بين شخصين بحيث يكون إيمان أحدهما كإيمان الآخر فى صفته وانطباقه على المؤمن به ، وما يكون فى نفس كل منهما من متعلق الإيمان يكاد يكون محالاً ، فكيف يتساوى إيمان أمم وشعوب كثيرة مع الخلاف العظيم في طرق التعليم والتربية والفهم والإدراك ، ولو كانت القراءة : فإن آمنوا بما آمنتم به كما روى عن ابن عباس فى الشواذ لكان الأولى أن يقدر المثل، فكيف نقول وقد ورد لفظ (مثل) متواتراً:إنه زائد"؟[2].

---

(١) المنار ١/٤٨٤ –٤٨٥ ، والأعمال الكاملة ٤/٣١٦

(٢) المنار ١/٤٨٥ ، والأعمال الكاملة ٤/٣١٦ –٣١٧.

فالدافع إلى مجيء (مثل) عنده هو دفع ما يترتب على نزع (مثل) من المساواة التامة فى الإيمان ؛لأنه محال.

والشيخ محمد عبده – رحمه الله – يقترب هنا شيئاً ما مما ذكره الرازي من فائدة لمثل إذ يقول : " المقصود منه – أي من لفظ (مثل) – التثبيت ، والمعنى : إن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم ومساوياً له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا لما استحال أن يوجد دين آخر يساوى هذا الدين فى السداد استحال الاهتداء بغيره"[1].وظاهر الفارق بين قول الرازي وقول محمد عبده ، إذ ما ذكره الرازي يناسب دواعي النظم ومتطلبات السياق ، وهى الترغيب فى الإيمان الحق الذي يدعو إليه النبي (ﷺ)من جهة استحالة وجود دين يماثله ، فضلاً عن أن يساويه.

وعندئذ فما ذكره الشيخ محمد عبده– رحمه الله – هو البداية للوقوف على الدلالة السابقة ، ولكنه لم يتم الأمر بما ناسب السياق كما فعل الرازي.ويرى جار الله الزمخشرى أن فائدة (مثل) في الآية الكريمة التبكيت ، يقول : "(بمثل ما آمنتم به) تبكيت، لأن دين الحق واحد لا مثل له ، وهو دين الإسلام(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)[2] فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً ، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين"[3].وإحقاقاً للحق فإن أكثر العلماء السابقين[4] يذكرون الزيادة للفظ (مثل)، ويسوقون مع ذلك احتمالات أخرى.

وقد جمع ابن القيم هذه الاحتمالات بقوله : " وقوله تعالى : (بمثل ما آمنتم به) وليس له مثل ، والجواب من أوجه: الأول : أن المراد به التبكيت ، والمعنى: إن حصلوا ديناً آخر مثله وهو لا يمكن ، الثاني : أن المثل صلة ، والثالث : أنكم آمنتم

(١) التفسير الكبير للرازى٤/٧٦ .

(٢) آل عمران:٨٥

(٣) الكشاف١/٢٢١

(٤) وهم: ابن عطية ، والبيضاوي ، والرازي ، وأبوحيان ، وابن القيم ، والنيسابوري ، والشوكانى.

بالقرآن من غير تصحيف ولا تحريف ، فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا ، الرابع : أن المراد أن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين "[1].

استدراك على القول بزيادة (ما) في قوله تعالى:(فقليلاً ما يؤمنون)[2].

ذهب الطبري إلى أن (ما) في هذه الآية لإفادة الشمول ، ولم يرتض القول بالزيادة التي لا معنى لها ، يقول : " قال بعضهم : هي زيادة لا معنى لها ، وإنما تأويل الكلام : فقليلاً يؤمنون ، وأنكر آخرون ما قاله هذا القول ، وقالوا : إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء ، إذ كانت (ما) كلمة تجمع كل الأشياء ثم تخص وتعم ما عمته بما تذكره بعدها"[3].

وقد ذهب جم غفير من العلماء إلى أن (ما) في الآية السابقة زائدة لتوكيد القلة، ومن هؤلاء: الزمخشري وابن عطية والبيضاوي والرازي والعز بن عبد السلام والقرطبي والنسفي وأبو حيان والنيسابوري والسيوطي وأبو السعود والألوسي[4].

وقد رفض الشيخ محمد عبده – رحمه الله – القول بزيادة (ما) في القرآن الكريم على سبيل الإطلاق ، وجعلها إما للعموم أو للتفخيم ، يقول : " ومن مباحث اللفظ في الآية – أي الآية السابقة – أن كثيراً من المفسرين يزعمون أن (ما) زائدة ، وما هي بزائدة وفاقاً لابن جرير الطبري ، وجل القرآن أن يكون فيه كلمة زائدة ، وإنما تأتي (ما) هذه لإفادة العموم تارة ، ولتفخيم الشيء تارة ، ويقول ابن جرير : إنما يؤتى بها في مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم ، كأنه قال :

---

(١) بدائع الفوائد ٤/١٠١١

(٢) البقرة:٨٨

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١/٤٠٩ – دار الفكر بيروت.

(٤) ينظر الكشاف ١/١٩٠ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ١/١٧٧، وتفسير البيضاوي ١/٣٥٩ ، والتفسير الكبير للرازي ٣/١٦٣، وتفسير العز بن عبد السلام ١/١٤٣، وتفسير القرطبي ٢/٢٦ ، وتفسير النسفي ١/٥٧ ، وتفسير النيسابوري ١/٣٣١ ، والجلالين ١/١٨، وتفسير أبو السعود ١/١٢٨، وتفسير الألوسي ١/٣١٩.

فإيماناً قليلاً ذلك الذي يؤمنون به ، وأما التي لتفخيم الشيء فكقوله تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم)[1] أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم"[2].

فالشيخ محمد عبده يرفض بشدة ما ذهب إليه الكثير من العلماء ، ويتابع الطبري فيما ذهب إليه. ودلالة (ما) على الشمول كما ذهبا- أي الطبري ومحمد عبده- إليه أنسب ما يكون بالدلالة على ضلال ما عليه بنو إسرائيل ، وعتوهم في المعصية ، وهذه الدلالة أحق بالسياق ، وتأمل قوله تعالى:(وقالوا قلوبنا غلف) وقوله : (بل لعنهم الله) اللذين هما فى سياق الآية المذكورة.

استدراك على القول بزيادة الكاف فى قوله تعالى:(أو كالذي مر على قرية....)[3].

نقل الطبري عن بعض نحاة البصرة زيادة الكاف فى الآية السابقة ، ورده بأنه غير جائز أن يكون فى كتاب الله شيء لا معنى له [4]، وقد ذكر ابن جني هذا القول على أنه اختيار الأخفش[5].

وجوز أبو حيان أن تكون الكاف اسم لا حرف ، فتكون فى موضع جر معطوفة على (الذي) ، والتقدير: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو مثل الذي مر على قرية ، وقد عد أبو حيان هذا الرأي هو الأولى[6].

وذكر أبو السعود أنها على هذا الوجه جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد على صحة وقوع البعث ، وعدم انحصارها فيما ذكر.[7]

---

(١) آل عمران : ١٥٩

(٢) المنار ٣٧٩/١ ، والأعمال الكاملة ٢٢٦/٤

(٣) البقرة:٢٥٩

(٤) تفسير الطبرى ٢٨/٣

(٥) سر صناعة الإعراب لابن جني ٢٦٨/١ ، تحقيق : د / حسن هنداوي ، دار النشر : دار القلم – دمشق – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، الطبعة الأولى.

(٦) البحرالمحيط ٣٠٢/٢.

(٧) إرشاد العقل السليم ٣٠٢/٢.

ويرتضى الشيخ محمد عبده ما ذهب إليه أبو حيان وأبو السعود، إذ يقــول : " الكاف فى قوله: (أو كالذي) بمعنى مثل فهي اسم، ومن الشواهد على ذلك قــول الراجز:

بيض ثلاث كنعاج جم يضحكن عن كالبرد المنهم

أي عن ثنايا مثل حب البرد الذائب".

ويرفض بقوة القول بزيادة الكاف فيقول : " وزعم الجلال[1] أنها زائدة انتصاراً لمذهب البصريين الذين أنكروا مجيء الكاف بمعنى (مثل) ، ولكن المعنى لا يستقيم كما يليق ببلاغة القرآن إلا على الأول".

ويضيف : " إن تحكيم مذاهبهم النحوية فى القرآن ومحاولة تطبيقه عليها ، وإن أخل ذلك ببلاغته جراءة كبيرة على الله تعالى ، وإذا كان النحو وجد لمثل ذلك فليته لم يوجد"[2].

ولعله يقصد بقوله : (ولكن المعنى لا يستقيم ....) أن الآية لا تتصل مع ما قبلها إلا على القول بأصالة الكاف ، وهو قول صائب ؛ لأن الآية في سياق تعدد الشواهد على وقوع البعث ، والقول بأصالة الكاف هو الذي يحقق هذا التعدد.

استدراك على القول بزيادة الفاء في قوله تعالى:(فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب)[3].

لعل أول من قال بزيادة الفاء فى الآية السابقة هو أبو الحسن الأخفش(ت ٢٢٤هـ) يقول ابن جني : "ومن زيادة الفاء قوله ــ جل ثناؤه-(لا تحسبن الذين يفرحون .....) الفاء زائدة ، وتحسب الثانية بدل من تحسب الأولى ، وإلى هذا ذهب أبو الحسن"[4].

---

(١) الجلالين ١/٥٧.

(٢) المنار ٣/٤٨ ، والأعمال الكاملة ٤/٧٢٦

(٣) آل عمران: ١٨٨

(٤) سر صناعة الإعراب ١/٢٦٨

وعلى هذا النهج سار الكثير من العلماء والمفسرين كالزجاج والزمخشري والعكبري وابن عطية والبيضاوي والقرطبي وأبو السعود والألوسى(١).

وقد أوضح الشيخ محمد عبده الرأي السابق وما يترتب عليه فيقول : " ومن مباحث اللفظ في الآية أن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن قوله تعالى: [فلا تحسبنهم] تأكيد لقوله : [لا تحسبن الذين] كما هو معهود في الكلام العربي من إعادة الفعل إذا طال الفصل بينه وبين معموله ، قال الزجاج : إن العرب إذا أطالت القصة تعيد حسبت وما أشبهها إعلاماً بأن الذي جرى متصل بالأول ، لا تظنن زيداً إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا فلا تظنه صادقاً ، فيفيد لا تظنن توكيداً وتوضيحاً ، والفاء زائدة كما فى قوله : [فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي]".ويرفض الشيخ محمد عبده هذا القول لما يترتب عليه فيقول : " وعندي أنه مردود غير صحيح ، ولولا الفاء لصح ، ولكن الفاء تمنع منه ، ولقد علمت مذهبنا في عدم زيادة حرف ما في القرآن بلا فائدة".

ويجعل الفاء عاطفة لإفادة التفريع ، والذي دفع إلى ذلك عنده هو الدلالة البلاغية لحذف المفعول الثاني من فعل الحسبان الأول .

يقول : (ووجه العبارة فى رأينا هو أن المفعول الثاني فى قوله : [لا تحسبن الذين يفرحون] محذوف ، حذف إيجازاً لتذهب النفس فى تقديره كل مذهب.....فإذا قال هاهنا : لا تحسبن الذين يفرحون بكذا ويحبون كذا تتوجه نفس القارئ أو السامع إلى طلب المفعول الثاني ، وتذهب فيه مذاهب شتى كلها من النوع الذي يليق بمن هذا حالهم ، كأن تقدر لا تحسبنهم مطيعين لربهم أو

(١) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج٥/٢١٨ – تحقيق : د/عبد الجليل عبده شلبي– الطبعة الأولى عالم الكتب – بيروت١٤٠٨هـ–١٩٨٨م ، والكشاف١/٤٩ ، والتبيان فى إعراب القرآن للعكبرى١/٩٠تحقيق :محمد على البجاوي– طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، والمحرر الوجيز١/٥٥٣ ، وتفسيرالبيضاوى٢/٢٨ ، وتفسير القرطبى٤/٣٠٧ ، وتفسيرأبوالسعود٢/١٢٦ ، وتفسير الألوسى٤/١٥٢

عاملين بهدايته ، وعندما يرد عليها بعد [فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب] يتعين عندها بهذا التفريع الذي ذكر فيه المفعول الثاني ما حذف من الأول لا بشخصه وعينه بل بنوعه ، لأننا لو قلنا : إن ما حذف من الأول هو ما أثبت فى الثاني لم يكن للتفريع فائدة"(١).

ودلالة الفاء على التفريع ذكرها الألوسي - إلى جانب ما ذهب إليه من قول بزيادة الفاء- ولكن فى حال معينة وبدلالة مغايرة لما ذكره الشيخ محمد عبده.

يقول الألوسي : " ويجوز- أيضاً- أن يكون الفعل الأول مسنداً إلى ضمير النبي(ﷺ) أو كل حاسب ، والمفعول الأول الموصول ، والمفعول الثاني محذوفاً لدلالة مفعول الفعل الثاني عليه ، والفعل الثاني مسنداً إلى الضمير الموصول ، والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه - عليه الصلاة والسلام - أو عدم حسبان كل ما حاسب"(٢).

وهذه الدلالة فيها تدليل على ضلال وبطلان ما حسبه هؤلاء العصاة ، من جهة أن نهى هؤلاء الفرحين عن الحسبان المذكور مفرع عن نهى الرسول (ﷺ) الذي هو مبلغ بالوحي ، أو مفرع عن نهى كل حاسب .

وأما ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده ففيه تشويق إلى المفعول المحذوف الذي هو محل الفائدة.

وعندئذ ففيما ذهب إليه كل من الألوسي ومحمد عبده ما يناسب إعجاز القرآن وبلاغته على عكس القول بالزيادة.

استدراك على القول بزيادة الباء بعد الفعل [كفى] فى القرآن الكريم.

لعل أول إشارة إلى زيادة الباء بعد الفعل [كفى] هي ما ذكره الأخفش الأوسط (المتوفى٢١٥ هـ)عند قوله بزيادة الباء فى قوله تعالى:(ولم يعي بخلقهن

---

(١) المنار٤/٢٩٤-٢٩٥ ، والأعمال الكاملة٥/١٦٣-١٦٤

(٢) روح المعاني للألوسى٤/١٥٢

بقادر)[1] حيث قال : " فهو بالباء كالباء فى قوله :[كفى بالله] [2] وهى مثل :(تنبت بالدهن)"[3].

وقد ذكر الزجاج (ت ٣٣٨هـ) زيادة الباء فى التركيب السابق إلا أنه يعرض فيه وجهاً لأصالة الباء ، وهو أن [كفى]بمعنى اكتف ، فتكون الباء أصلية [4] وعلى غرار الزجاج سار الراغب(ت ٥٠٢ هـ) [5].وابن جني من القائلين بزيادة الباء فى هذا التركيب ، إذ يضرب مثلاً لزيادة الباء فى الفاعل بقوله تعالى : (وكفى بنا حاسبين) [6] ونقل عن أبى بكر محمد بن السري : أن كفى بالله تقديره : كفى اكتفاؤك بالله ، وضعفه ؛ لأن الباء على هذا متعلقة بمصدر محذوف وهو الاكتفاء ، ومحال حذف الموصول وتبقية صلته" [7]وذهب إلى الزيادة - أيضاً- الزمخشرى(المتوفى ٥٣٨ هـ)[8] ، وذهب البيضاوي (المتوفى ٥٨٦ هـ) إلى أن فائدة زيادة الباء فى التركيب السابق هي توكيد الاتصال الإسنادى بالاتصال الإضافي ، وتابعه فى ذلك أبو حيان (المتوفى ٧٤٥ هـ) ، والزركشي (المتوفى ٧٩٤ هـ)[9].

---

(١) الأحقاف:٣٣

(٢) الرعد: ٤٣ ، والإسراء : ٩٦ ، والعنكبوت : ٥٢

(٣) الآية من المؤمنون:٢٠ ، وينظر معاني القرآن للأخفش:٤٧٨/٢ - تحقيق : فائز فارس- الطبعة الثانية - ١٤٠١ هـ -١٩٨١م.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج٥٧/٢

(٥) المفردات فى غريب القرآن للراغب١/ ٤٣٧

(٦) الأنبياء:٤٧

(٧) سر صناعة الإعراب١٤١/١-١٤٢

(٨) الكشاف٤١٣/٤

(٩) ينظر تفسير البيضاوى١٩٦/٢ ، والبحر المحيط ٢٢٦/٣ ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى٢٥٣/٤

وممن قال بالزيادة القرطبي (المتوفى ٦٧١هـ) والسيوطي (المتوفى ٩١١هـ)[١]. وقد أنكر الشيخ محمد عبده زيادة الباء فى هذا التركيب فى عدة مواضع ، ففي سياق حديثه عن توضيح معنى الحرف الزائد المؤكِد يقول : " وأما ما يسمونه بالحرف الزائد الذي يأتي للتوكيد فهو حرف وضع لذلك ، ومعناه هو التأكيد ، وليس معناه معنى الكلمة التي يؤكدها ، فالباء فى قوله:(وكفى بالله شهيداً)[٢] تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله – جل شأنه – بذاتها ومعناها الذي وضعت له ، ومعنى وصفها بالزيادة أنها – كذلك – فى الإعراب" [٣].

وأيضاً فى سياق حديثه عن بعض الأساليب التي لا تتوافق مع قواعد النحو يقول : "ومن هذه الأساليب الخاصة قوله تعالى:(وكفى بالله شهيداً) [٤]و[سبحان الله] فإذا فسرت ذلك بالتحليل والإرجاع إلى القواعد العامة فقلت فى الأول : كفى الله شهيداً أو كفت شهادته ، وفى الثاني:تسبيحاً لله لم يكن له تأثير الأول وموقعه من النفس"[٥].وكذلك أنكر القول بزيادة الباء فى قوله تعالى: (وكفى بالله حسيباً) وهو ينقد النحاة الذين خرجوا الآية على مذاهبهم ، ومن هذه المذاهب القول بزيادة الباء فيها، يقول: " ومن مباحث اللفظ فى الآية أن بعض النحاة يقولون : إن الباء الداخلة على لفظ الجلالة فى قوله : [وكفى بالله] زائدة ، والمعنى: كفى الله حسيباً، وبعضهم يقول : إن الفاعل مصدر محذوف ، والباء حرف أصلى متعلق به ، وهذا كله من تطبيق القرآن على القواعد التي وضعوها.

ويضيف : " ونحن نقول : إن المعنى مع وجود الباء هو غير المعنى مع عدمها ، فلها معنى فى الكلام كيفما أعربت ، وإن كفى فعل ليس له فاعل ، والجار

---

(١) ينظر تفسير القرطبى٦/٣٩٢ ، والجلالين١/٢٥٣

(٢) الفتح : ٢٨

(٣) المنار١/٤٦-٤٧ ، الأعمال الكاملة٤/٢٦

(٤) النساء :٧٩ ، ١٦٦

(٥) المنار٢/٤٤٣ ، والأعمال الكاملة٤/٣٩٨

متعلق به ومعناه : أن الله أشد من يراقب ويحاسب"[1].فالشيخ محمد عبده يرفض مفهوم الزيادة، الذي هو أن يكون دخول الحرف كخروجه بلا تغيير لفظاً أو معنى، فلا يستوي عنده فى الدلالة كفى بالله شهيداً مع كفى الله شهيداً ، بل لكل دلالة تخالف الأخرى وطعم مباين.

وبيانه – رحمه الله – لفائدة الباء فى قوله تعالى : (وكفى بالله شهيداً)[2] بأنها [تؤكد معنى اتصال.....] ، ولفائدة الباء فى قوله تعالى: (وكفى بالله حسيباً)[3] بأنها للدلالة على أنه [أشد من يراقب ويحاسب] تحليل صائب ودقيق يتناسب مع الدلالة الأصلية للباء– وهى الإلصاق– وهو الأدل على إبراز الهدف من كل آية من الآيات.

والهدف من قوله تعالى: (وكفى بالله شهيداً)– كما تدل السياقات الوارد فيها– هى إظهار صدق نبوته وصحة رسالته ، وانظر إلى قوله تعالى:(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً) [4]وقوله :(لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً)[5] وقوله :(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً)[6].والهدف من قوله تعالى فى سورة النساء : (وكفى بالله حسيباً)[7] التحذير البالغ من أكل أموال اليتامى والحفاظ بقوة على ذلك المال ، وهذا كما يدل السياق ، يقول تعالى:(وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح

(١) المنار٤/٣٩٢ ، والأعمال الكاملة٥/١٨٩

(٢) النساء:٧٩ –١٦٦ ، والفتح : ٢٨

(٣) النساء :٦

(٤) النساء: ٧٩

(٥) النساء : ١٦٦

(٦) الفتح : ٢٨

(٧) النساء : ٦

فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً).والأدل على تحقيق ما ترمى إليه السياقات السابقة أن تكون دلالة الباء على نحو ما أشار إليه الشيخ محمد عبده ، أو بعبارة أخرى أن تكون الكفاية ملازمة له - سبحانه وتعالى- كما هو مقتضى دلالة الباء على الإلصاق.

المبحث الثاني

استدراكات تتعلق بالتكرار

استدراك على القول بتكرار الإشارة فى قوله تعالى: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)[1].

ذهب الزمخشرى - رحمه الله - إلى أن مرجع الإشارة فى الآية السابقة واحد ، ورأي أن داعي التكرار " تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح ، فجعلت كل واحدة من الأثرتين فى تميزهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها "[2] ، وإلى هذا ذهب البيضاوي والرازي والنسفي والنيسابوري وابن عادل وأبو السعود[3] ورأي - كذلك - الزمخشرى أن تنكير [هدى] للتفخيم ، يقول: " ونكر [هدى] ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره ، كأنه قيل : على أي هدى كما تقول : لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً" وإلى هذا الرأي ذهب أئمة التفسير السابقين[4].وقد عارض الشيخ محمد عبده القول بأن مرجع الإشارة واحد ، فيقول فى البدء معبراً عن وجهة النظر السابقة " هاهنا إشارتان والمشار إليه عند الجمهور واحد ، وهو ما فى الآيتين السابقتين من المؤمنين من غير أهل الكتاب والمؤمنين منهم".وقد ذكر وجهاً آخر فى داعي تكرار الإشارة غير ما سبق وهو قول يعلوه التكلف ، يقول : " وكرر الإشارة للإسلام للإعلام بأنه لابد من تحقق الوصفين لتحقق الحكم بأنهم على هدى ، وأنهم هم المفلحون كذا قال بعضهم وهو تكلف ظاهر ، وكذا قول بعضهم : إن تنكير [هدى] هنا للتعظيم"[5].

---

(١) البقرة:٥

(٢) الكشاف١/٨٥

(٣) ينظر تفسير البيضاوى١/١٣٢، التفسير الكبير٢/٣٢ ، وتفسيرالنسفي١/١٤ ، والنيسابورى ١/١٤٨، واللباب١/٣٠٣ ، وإرشاد العقل السليم١/٣٧

(٤) الكشاف١/٨٥ ، وينظر المراجع السابقة وصفحاتها.

(٥) المنار١/ ١٣٦ ، والأعمال الكاملة٤/٥٨ - ٥٩

وأعلن رأيه بقوله : "وأنا أرى أن الإشارتين هما لنوعى المؤمنين المذكورين فى الآية السابقة بأسلوب اللف والنشر المرتب"[1].

وقد وضح هذا الرأي بقوله : " إن الإشارة الأولى : (أولئك على هدى من ربهم) فى هذه الآية للفرقة الأولى وهم الذين ينتظرون الحق ؛ لأنهم على شيء منه – كما يدل عليه تنكير[هدى] الدال على النوع – وينتظرون بياناً من الله تعالى ليأخذوا به ، وأما الفرقة الثانية وهم المؤمنون بما جاء به محمد (ﷺ) فعلى هدى تشترك فيه تلك الفرقة الأولى ولكن على وجه أكمل ؛ لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به، وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية [وأولئك هم المفلحون] كما هو ظاهر، وهم المفلحون بالفعل لاتصافهم بالإيمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من الكتب السماوية واليقين بالآخرة ، لا مطلق الإيمان بالغيب إجمالاً".

وبناء الأسلوب على طريق اللف والنشر كما ذهب إليه الشيخ محمد عبده من شأنه أن يدل على وضوح العائد إليه الإشارة فى كلتا الجملتين ، وهذا أنسب بصحة طريق المؤمنين ، ووضوح الحق فى جانبهم.وقد دلل الشيخ محمد عبده على صحة ما ذهب إليه بقوله : " ويرشد إلى التغاير بين مرجع الإشارتين ترك ضمير الفصل"هم" فى الأولى وذكره فى الثانية ، ولو كان المشار إليه واحداً لذكر الفصل فى الأولى ؛ لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام ، فهو خاص بهم دون سواهم ، لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم"[2] ، وهذا استدلال جيد ومنطق صائب من الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى.

---

(١) عرف الخطيب القزويني اللف والنشر بقوله : " هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه " ثم ذكر أن النشر إما على ترتيب اللف ، وإما على غير ترتيبه – ينظر الإيضاح :٣٦٦-٣٦٨ – دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان.

(٢) المنار١/ ١٣٧ ، والأعمال الكاملة٤/٥٩

استدراك على القول بأن تكرار الأمر بهبوط آدم من الجنة فى قوله تعالى:(قلنا اهبطوا منها جميعاً.....)[1] للتوكيد.

ذكر الأمر بهبوط آدم من الجنة فى سورة البقرة مرتين ، الأولى فى الآية(٣٦) ، وهى قوله : (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) ، والأخرى فى الآية السابقة وهى رقم(٣٨).

والكثير من المفسرين يذكرون نكتة التوكيد فى هذا التكرار، ومن هؤلاء: الواحدى والزمخشري وابن عطية والبيضاوي والرازي والقرطبي والنسفي وأبو السعود والشوكاني والألوسي [2].

وأما الشيخ محمد عبده فيرى أن سر التكرار أنه " أمرهم الله تعالى بالهبوط مرتين ، فالأولى بيان لحالهم فى أنفسهم بعد الهبوط من تلك الجنة أو الخروج من ذلك الطور، وهو أن حالهم تقتضى العداوة والاستقرار فى الأرض والتمتع بها وعدم الخلود فيها ، والثانية بيان لحالهم من حيث الطاعة والمعصية وآثارهما ، وهى أن حالة الإنسان فى هذا الطور لا تكون عصياناً مستمراً شاملاً ، ولا تكون هدى واجتباء عاماً – كما كان يفهم لو اقتصر على ذكر توبة الله على آدم وهدايته واجتبائه – وإنما الأمر موكول إلى اجتهاد الإنسان وسعيه ، ومن رحمة الله تعالى به أن يجعل فى بعض أفراده الوحي ويعلمهم طرق الهداية، فمن سلكها فاز وسعد، ومن تنكبها خسر وشقي".

ويضيف: "هذا هو السر فى إعادة ذكر الهبوط ، لا أنه أعيد للتأكيد كما زعموا"[3].

---

(١) البقرة:٣٨

(٢) ينظر تفسير الواحدى ١٠١/١، والكشاف١٥٨/١، والمحرر الوجيز١٣١/١، وتفسير البيضاوى٣٠١/١ ، والتفسير الكبير٢٥/٣ ، وتفسير القرطبي ٣٢٧/١ ، وتفسير النسفي ٣٩/١ ، وإرشاد العقل السليم٩٢/١، وفتح القدير٦٩/١ ، وروح المعانى٢٣٨/١

(٣) المنار٢٨٤/١ – ٢٨٥ ، والأعمال الكاملة٢/٤

وبناء على ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده فالتكرار من باب الترديد ، والذي عرفه العلوي بقوله : " ومعناه فى اصطلاح علماء البيان أن تعلق اللفظة بمعنى من المعاني ثم تردها بعينها وتعلقها بمعنى آخر"(١).

وقد ذكر العلماء السابقون دواع أخرى لهذا التكرار غير التوكيد ، يقول البيضاوي: " كرر للتوكيد ، أو لاختلاف المقصود ، فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون ، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف ، فمن اهتدى الهدى نجا ، ومن ضله هلك"(٢).ويلاحظ أن الداعي الأخير للتكرار عند البيضاوي هو ما ذكره الشيخ محمد عبده سلفاً.

ولا نعدم عند غير البيضاوي من العلماء السابقين دلالات قريبة مما ذكره البيضاوي ، وتابعه فيه الشيخ محمد عبده - رحمه الله تعالى- وقد اكتفيت بما أشار إليه البيضاوي فقط خوف الإطالة(٣).

استدراك على القول بأن التكرار فى قوله تعالى:(ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام.....)(٤) لمجرد التوكيد.

افتتحت الآية السابقة - وهى كاملة (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون)- بنفس الافتتاح الذي افتتحت به الآية السابقة عليها ، وهى قوله تعالى:(ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون)(٥)، وجمع فيها - أيضاً- بين خطاب النبي (ﷺ) وخطاب الأمة.

---

(١) الطراز للعلوى٣/٤٧- تحقيق د/عبد الحميد هنداوي - المكتبة العصرية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢ م.

(٢) تفسير البيضاوى١/٣٠١

(٣) تراجع الإحالات السابقة لهؤلاء العلماء.

(٤) البقرة:١٥٠

(٥) البقرة:١٤٩

وقد ذهب السيوطي – رحمه الله تعالى– إلى أن هذا التكرار لمجرد التوكيد[1]، وقد أنكر الشيخ محمد عبده ما ذهب إليه السيوطي يقول : " وليس هذا الجمع والإعادة لمجرد التوكيد كما قال مفسرنا الجلال"[2].

ويوضح النكتة البلاغية للتكرار من وجهة نظره فيقول : " وإنما هو تمهيد للعلة وتوطئة لبيان الحكم الموصولة به ، وهو أسلوب معهود عند البلغاء ، والمتأخرون الذين لا يذوقون طعم الأساليب البليغة يكتفون فى مثل هذا المقام بقولهم : كل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة ، وهو نظم غير معهود فى الكلام البليغ ، ولا سيما مقام الإطناب والتأكيد والاحتجاج وإزالة الشبه"[3].

فلا يصح عنده ما ذهب إليه السيوطي من الاقتصار على نكتة التوكيد فى بيان داعي التكرار ، وذلك كما يدل قوله : [ليس هذا الجمع والإعادة لمجرد التوكيد].والتوكيد – كما يدل كلامه– نكتة معتبرة هنا ؛ لأن المقام مقام احتجاج وإزالة للشبهة ، وبيان ذلك أن الآيتين جاءتا لتثبيت حكم استقبال البيت الحرام وتقرير نسخ استقبال بيت المقدس ، وذلك " لأن النسخ هو من مظان الفتنة والشبهة وتزيين الشيطان للطعن فى تبديل قبلة بقبلة ، وإذا كان ذلك صعباً عليهم ، فأكد بذلك أمر النسخ وثبت"[4].وأما النكتة الأخرى التي يراها محمد عبده للتكرار ، والتي فاتت السيوطي فهي التمهيد للعلة والتوطئة لبيان الحكم الموصولة به ، إذ يرى– رحمه الله – أنه هو المناسب للاستعمالات البليغة ، يقول البيضاوي : "وقرن بكل علة معلولها كما يقرن المدلول بكل واحد من دلائله تقريباً وتقريراً"[5].

(١) الجلالين ١/٢٩

(٢) المنار٢/٢٤ ، والأعمال الكاملة٤/٣٤١

(٣) المنار٢/٢٤ ، والأعمال الكاملة٤/٣٤١

(٤) البحر المحيط١/٦١٣

(٥) تفسير البيضاوى١/٤٢٦-٤٢٧

استدراك على القول بأن القيدين بالحال (وأنتم معرضون)و(وهم معرضون)تكرار

رأي الكثير من المفسرين أن القيد بالحال فى قوله تعالى : (ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون)[1] ، وقوله تعالى : (ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)[2] مؤكد للتولي ؛ لأن الإعراض هو التولي.

يقول العكبرى : " [وأنتم معرضون] جملة فى موضع الحال المؤكدة ؛ لأن توليتم يغنى عنه" [3] ، وتابعه القرطبي إذ يقول : " والإعراض والتولي بمعنى واحد، فخالف بينهما فى اللفظ"[4]، وعلى نهجهما سار أبوحيان والزركشى وابن عادل والسيوطي والشوكانى والألوسى[5]

وأما الشيخ محمد عبده – رحمه الله تعالى– فلم يلق هذا الرأي قبولاً منه ، فقد رأي أن القيد بالحال فى كلتا الآيتين ليس تكراراً للتولي ، أو تأكيداً له.

ففي الآية الأولى يقول : " ثم كان أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم أن توليتم عن العمل به ، وأنتم فى حالة الإعراض عنه وعدم الاكتراث له ، وقد يتولى الإنسان منصرفاً عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه ، فليس كل متول عن شيء معرضاً عنه مهملاً له على الدوام" [6].

ويضيف : " ولذلك كان ذكر هذا القيد [وأنتم معرضون] لازماً لابد منه ، وليس تكراراً كما يتوهم ، وإنما هو متمم للمعنى ، ومؤكد للمبالغة فى الترك المستفاد من التولي" [7].

---

(١) البقرة:٨٣

(٢) آل عمران:٢٣

(٣) التبيان في إعراب القرآن١/ ٤٨

(٤) تفسير القرطبى٢/٧

(٥) ينظر البحر المحيط٢/٤٣٤ ، والبرهان ٢/٤٠٢ ، واللباب ٢/٢٤٤، والجلالين٣/١٧٩، وفتح القدير١/١٠٨ ، وروح المعانى٣/١١١

(٦) المنار١/٣٦٩ ، والأعمال الكاملة٤/٢١٧

(٧) نفس المرجعين السابقين والصفحتين .

وفى الآية الثانية يقول : " وكان من مقتضى الإيمان ألا يتردد المؤمن فى إجابة الدعوة إلى حكم كتابه الذي هو أصل دينه ، على أنهم - أي أهل الكتاب - لم يكتفوا بالتردد حتى تولوا بالفعل ، ولم يكن التولي عرضاً حدث لهم بعد أن كانوا مقبلين على الكتاب خاضعين لحكمه فى كل حال وآن ، بل هو وصف لهم لازم ، بل اللازم لهم ما هو شر منه ، وهو الإعراض عن كتاب الله فى عامة أحوالهم" .

وقد خلص إلى أن "جملة [وهم معرضون] ليست مؤكدة للتولي - كما قيل - بل هي مؤسسة لوصف الإعراض ، الذي هو أبلغ منه" (١).

فالشيخ محمد عبده يرى أن التولي فى الآيتين تعبير عن المبالغة فى الترك ، والإعراض كذلك بالإضافة إلى أن فيه إصرار على الترك وملازمة له ، وعدم اكتراث بالمعرض عنه ، فهو يتعلق بالباطن.ولذلك قد رأي أن الإعراض أبلغ من التولي فى التعبير عن الترك ، فليس كل متول عن الشيء معرضاً عنه.وما ذهب إليه الشيخ محمد عبده يقويه ما ذكره ابن منظور فى بيان معنى التولي ، إذ يقول : " وقد ولى الشيء وتولى إذا ذهب هارباً ومدبراً"(٢)، وما نقله عن الأصمعي فى تفسير قولهم : [فادان معرضاً] إذ يقول : " أي أخذ الدين ، ولم يبال أن لا يؤديه ، ولا ما يكون من التبعة" (٣).وقد ذكر العكبري - رحمه الله - ما ذهب إليه محمد عبده ولكن مضعفاً ، يقول : "وقيل: المعنى توليتم بأبدانكم ، وأنتم معرضون بقلوبكم" (٤).فـ " فى الآية إشارة إلى أن بنى إسرائيل جمعوا بين الحركة الحسية المعبرة عن رفضهم العمل بالميثاق الذي قطعه الله على أسلافهم استهانة به وإلقاء له وراء ظهورهم ، وبين ما انطوت عليه جوانحهم من عدم الإذعان للحق والإعراض عنه"(٥).

---

(١) المنار٣/٢٦٦ ، والأعمال الكاملة٥/٢٢

(٢) لسان العرب لابن منظور ١٥ /٤١٥

(٣) السابق٧/١٧٦

(٤) التبيان٧/١٧٦

(٥) من أسرار القيد بالحال فى النظم القرآني "بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة" للدكتور/ محمد الأمين الخضري صـ :٧ العدد (١١) ١٤١٣ هـ .

المبحث الثالث

استدراكات تتعلق بالتقديم والتأخير

يعد التقديم والتأخير من أهم الظواهر اللغوية التي أكسبت اللغة مرونتها وطواعيتها ، فهو يسمح للمتكلم أن يتحرك بحرية متخطياً الرتب المحفوظة ، فيختار من التراكيب ما يمنح موقفه الفكري والوجداني خصوصيته وتفرده.ولذا وقف الشيخ محمد عبده- رحمه الله- معارضاً لبعض النكات للتقديم فى القرآن الكريم مما ذكره بعض المفسرين ، والتي وجد أنها تنأى عن البلاغة ، وتبتعد عما يؤديه التقديم من فوائد جليلة ، ومن ذلك:

استدراك على القول بأن تأخير قوله تعالى:(واركعوا مع الراكعين)[1] لرعاية الفاصلة.

فى قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) ذكر الشيخ محمد عبده أنه أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين ، والركوع صورة الصلاة أو جزء منها ، وقد أخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جليلة لا رعاية للفاصلة ، كما زعم بعض المفسرين[2]

وقد وضح منهجه فى عدم قبول التعليل للتقديم برعاية الفاصلة بقوله: " ليس من الجائز أن يكون فى القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة ، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس ، فكيف يقع فى كلام الله تعالى".

وهذا قريب من قول الزمخشرى فيما نقله السيوطي عن كشافه القديم ، إذ يقول : "لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة"[3].

---

(١) البقرة:٤٣

(٢) لم أقف على صاحب هذا الرأي.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى٢/١٠٥- تحقيق : سعيد المندوب ، دار الفكر بيروت١٤١٦هـ -١٩٩٦م - الطبعة الأولى.

ويوضح الشيخ محمد عبده السر فى ترتيب الأوامر الثلاثة التي اشتملت عليها الآية الكريمة بقوله : " وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله تعالى : فإقامة الصلاة فى المرتبة الأولى من عبادة الله تعالى ؛ لأنها روح العبادة والإخلاص له ، ويليها إيتاء الزكاة ؛ لأنها تدل على زكاة الروح وقوة الإيمان ، وأما الركوع – وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها– فهو فى المرتبة الثالثة ، فرض للتذكير بسابقيه ، وما هو بعبادة لذاته ، وإنما كان عبادة لأنه يؤدى امتثالا لأمر الله تعالى وإظهاراً لخشيته والخشوع لعظمته ، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص ؛ فلا يعد عند الله شيئاً ، وإن عده أهل الرسوم كل شيء ، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة".

ويضيف: " ولا يخفى أن الفصل بين معنى الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة"(١).

وهذه الملاحظة فى التعليل للترتيب الذي جاءت عليه الآية الكريمة ملاحظة جيدة تظهر إعجاز القرآن وسمو نظمه ، وتدل على مدى صفاء ذهن الشيخ محمد عبده وجودة فهمه وذوقه البارع فى إدراك أسرار بناء النظم العالي.

استدراك على القول بأن التقديم فى قوله تعالى:(إن الله بالناس لرءوف رحيم)(٢) لرعاية الفاصلة.

القياس عندما يجتمع وصفان أن يتقدم أدناهما " لأن فى تقديم أعلاهما ثم الإرداف بأدناهما نوعاً من التكرار، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول ما دونه ، فذكره بعده غير مفيد"(٣).

ولذلك يقول البيضاوي فى الآية السابقة " ولعله قدم الرءوف وهو أبلغ محافظة على الفواصل"(٤)وكذلك ذهب السيوطي(٥).وقد اشتد الشيخ محمد عبده فى إنكار القول

(١) المنار ١/٢٩٤ ، والأعمال الكاملة٤/١٥٤-١٥٥

(٢) البقرة:١٤٣

(٣) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير ١/٤٥

(٤) تفسير البيضاوى ١/٤٢٠

(٥) الجلالين ١/٣٠

بأنه قدم الأبلغ للفاصلة فى هذه الآية ، يقول : " ولا يصح هذا القول ؛ لأن كل كلمة فى القرآن موضوعة موضعها اللائق بها ، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة ؛ لأن القول برعاية الفاصلة إثبات للضرورة ، كما قالوا فى كثير من السجع والشعر أنه قدم كذا وأخر كذا لأجل السجع ولأجل القافية ، والقرآن ليس بشعر ولا التزام فيه للسجع ، وهو من الله الذي لا تعرض له الضرورة".

ويعلل- رحمه الله- إيراد البلاغيين هذه العلة فى دراساتهم حول بلاغة القرآن بقوله : " وما قال بعض المفسرين مثل هذا القول إلا لتأثرهم بقوانين فنون البلاغة ، وغلبتها عليهم فى توجيه الكلام ، مع الغفلة فى هذه النقطة عن مكانة القرآن فى ذاته ، وعدم الالتفات إلى ما لكل كلمة فى مكانها من التأثير الخاص عند أهل الذوق العربي".

ويعلل هذا التقديم بأنه من قبيل الدليل بعد الدعوى ، يقول : " وعندي أن الرأفة من آثار الرحمة ، والرحمة أعم ؛ فإن الرأفة لا تستعمل إلا فى حق من وقع فى بلاء ، والرحمة تشمل دفع الألم والضر، وتشمل الإحسان وزيادة الإحسان ، فذكر الرحمة -هنا- فيه معنى التعليل والسببية، وهو من قبيل الدليل بعد الدعوى، فهو واقع فى موقعه كما تحب البلاغة وترضى".ويزيد هذا التعليل توضيحاً فيقول : " كأنه قال : إن الله رءوف بالناس ؛ لأنه ذو الرحمة الواسعة ، فلا يضيع عمل عامل منهم ، ولا يبتليهم بما يظهر صدق إيمانهم وإخلاصهم فى إتباع رسوله ليضيع عليهم هذا الإيمان والإخلاص ، بل ليجزيهم عليه أحسن الجزاء"[1].

وهذا التعليل مستمد مما ذكره الرازي إذ يقول : " الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة فى رحمة خاصة وهى دفع المكروه وإزالة الضرر(ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله)[2] أي لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما ، وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ، ويدخل فيه الإفضال والإنعام ، وقد سمى

(١) المنار٢/١٢ ، والأعمال الكاملة٤/٣٣٢

(٢) النور:٢

الله تعالى المطر رحمة ، فقال : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته)[1] لأنه إفضال من الله وإنعام ، فذكر الله تعالى الرأفة أولاً بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم ويخفف المحن عنهم ، ثم ذكر الرحمة لتكون أعم وأشمل"[2].

ويلاحظ أن تعليل الشيخ محمد عبده لهذا التقديم لا يقف - فقط - عند البحث عما يجعل التقديم صحيحاً ومسوغاً ، ببيان أن الوصف الأول خاص والأخير عام - كما فعل الرازي - وإنما مع ذلك يقدم وجهاً جيداً لحسن هذا التقديم ، فهو قد أفاد من قول الرازي - رحمه الله - وبنى عليه هذا المعنى الجليل للتقديم.

استدراك على القول بأن التقديم في قوله تعالى : (فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)[3] لرعاية الفاصلة.

ذكر الشيخ محمد عبده أن بعض المفسرين[4] ذهب إلى أن حق الترتيب في الآية السابقة أن يقال : كان من الكافرين واستكبر وأبى ؛ لأن الكفر عنده سبب الاستكبار ، والاستكبار سبب الإباء.

وذكر - أيضاً - أن مثل هذا المفسر يعلل مخالفة الترتيب الطبيعي في النظم برعاية الفاصلة.

وأما الشيخ محمد عبده فيرى أن نظم الآية قد جاء على مقتضى الطبيعة في الذكر ، وقد علل ذلك بقوله : " إنه يفيد أن الله تعالى أراد أن يبين الفعل أولاً ؛ لأنه المقصود بالذات وهو الإباء ، ثم يذكر سببه وعلته وهو الاستكبار، ثم يأتي بالأصل في العلة والمعلول والسبب والمسبب ، وهو الكفر"[5].

---

(١) الأعراف:٥٧

(٢) التفسير الكبير ٤/٩٩

(٣) البقرة:٣٤

(٤) لم أقف على صاحب هذا القول.

(٥) المنار ١/٢٦٦ ، والأعمال الكاملة ٤/١٣٣

وقد بين أبو حيان الداعي إلى كون الإباء هو المقصود بالذات بقوله : " المقصود الإخبار عنه - أي عن إبليس - بأنه خالف حاله حال الملائكة فناسب أن يبدأ بتأكيد ما حكم به عليه فى الاستثناء ، أو بإنشاء الإخبار عنه بالمخالفة ، والذي يؤدى هذا المعنى هو الإباء"(١).

وهذا مما ذكره الشيخ محمد عبده سلفاً ، ولكنه - رحمه الله - لم يكتف به، بل بين الداعي إلى ترتيب الجمل كلها ، على نحو دل على ما يتمتع به الشيخ محمد عبده من ذوق رفيع وإحساس صادق ببلاغة الأساليب وإحكامها.

وما ذكره الشيخ محمد عبده فى هذا التقديم هو أولى من التعليل الأول لأبى حيان لسر هذا التقديم ، إذ يقول : " وقدم الإباء على الاستكبار، وإن كان الاستكبار هو الأول ؛ لأنه من أفعال القلوب وهو التعاظم ، وينشأ عنه الإباء من السجود اعتباراً بما ظهر عنه أولاً، وهو الامتناع عن السجود"(٢)، وأولى -كذلك- من قول أبو السعود: " وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسبباً عنه لظهوره ، ووضوح أثره"(٣).

استدراك على القول بأن ترتيب المتعاطفين فى قوله تعالى:(لا تأخذه سنة ولا نوم)(٤)من قبيل الترتيب الوجودي.

ذهب إلى القول السابق البيضاوي ، يقول- رحمه الله- : " وتقديم السنة عليه - أي على النوم- وقياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود "(٥) ، وتابعه الزركشي، والسيوطي ، وأبو السعود ، والشوكانى(٦).

وقد عارض الشيخ محمد عبده القول السابق، ورأى أن التقديم فى الآية من قبيل الترقي والتدرج، يقول: " إن ما ذكر فى النظم الكريم ترق فى نفى هذا النقص".

---

(١) البحر المحيط١/٣٠٤ ، وينظر روح المعانى١/٢٣١

(٢) البحر المحيط١/٣٠٤

(٣) تفسير أبو السعود ١/٨٩

(٤) البقرة :٢٥٥

(٥) تفسير البيضاوى١/٥٥٣

(٦) ينظر البرهان٣/٢٤٠ ، والجلالين٣/٣٦ ، وتفسير أبو السعود١/٢٤٨ ، وتفسير الشوكانى١/٢٧١-٢٧٢

ويوضح داعيه للقول السابق ورفضه للقول بأن الترتيب وجودي فيقول: " ومن قال بعدم الترقي فقد غفل عن معنى الأخذ وهو الغلب والاستيلاء ، ومن لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوى ، فذكر النوم بعد السنة ترق من نفى الأضعف إلى نفى الأقوى"(١).

ومما يدل على معنى الأخذ الذي ذكره الشيخ محمد عبده قول الراغب: "الأخذ : حوز الشيء وتحصيله ، وذلك تارة بالتناول ، نحو : (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده)(٢)، وتارة بالقهر نحو قوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم)(٣)، وقال تعالى:(وأخذ الذين ظلموا الصيحة)"(٤).

والشيخ محمد عبده يوافق فى هذه المسألة قول المحققين ، يقول الألوسي: " وقال بعض المحققين: هذا كله – أي القول بأن التقديم لرعاية الترتيب الوجودي، أو لرعاية الفاصلة، أو لتحقيق التتميم– إنما يحتاج إليه إذا أخذ الأخذ بمعنى العروض والاعتراء ، وأما لو أخذ بمعنى القهر والغلب – كما ذكره الراغب وغيره من أئمة اللغة– فالترتيب على مقتضى الظاهر، إذ يكون المعنى : لا تغلبه السنة ولا النوم ، الذي هو أكثر غلبة منها"(٥)والذي يدل على صحة قول الشيخ محمد عبده : [ومن قال بعدم الترقي.....] ما ذكره أبو السعود – وهو أحد القائلين بالترتيب الوجودي – عند تفسيره لمعنى [الأخذ] ، إذ يقول : " والمراد بيان انتفاء اعتراء شيء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى"(٦).

فهو يغفل عن تفسير الأخذ بالقهر ويفسره بالاعتراء، وقد ترتب عليه أن يبتعد عن القول بأن الترتيب للترقي ، كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى.

---

(١) المنار٣/٢٦ ، والأعمال الكاملة٤/٧٠١

(٢) يوسف:٧٩

(٣) البقرة:٢٥٥

(٤) الآية من هود :٦٧ ، وينظر المفردات١/١٢

(٥) روح المعانى٣/٨ ، وينظر نظم الدرر١/٤٩٦

(٦) إرشاد العقل السليم١/٢٤٨

المبحث الرابع

استدراكات تتعلق بالتناسب

علم المناسبة من أجل علوم القرآن ، وأدلها على إعجاز بيانه ، وارتباط آياته وسوره ، والمراد بالمناسبة في اللغة : المقاربة والمشاكلة[١].

وقال الزركشي عنه : "اعلم أن المناسبة علم شريف ، تحرز به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول".

وعن فائدة هذا العلم يقول : "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[٢].

ومرجع هذه المناسبة في الآيات والسور يعود إلى معنى ما ، رابط بينهما عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات ، أو التلاؤم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول[٣].

فالأمر يحتاج إلى تدقيق بالغ ونظر محكم ، ولذا عد التناسب وجها من وجوه الإعجاز، قال الشيخ محمد عبده : " ولعمري إن وجوه الاتصال بين الآيات ، وما فيها من دقائق المناسبات لهي ضرب من ضروب البلاغة ، وفن من فنون الإعجاز، إذا أمكن للبشر الإشراف عليه ، فلا يمكنهم البلوغ إليه"[٤].

وقد اهتم الشيخ محمد عبده بهذا العلم يقول مصطفى صادق الرافعي : " وكان نابغة عصرنا الإمام الشيخ محمد عبده – رحمه الله – كثيراً ما يعنى في

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة(ن.س.ب) ١٤/٢٤٢ – دار صادر بيروت– الطبعة الأولى.

(٢) البرهان ١/٣٥ ــ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم– دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه– الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.

(٣) الإتقان ٢/١٠٨ – المكتبة التجارية الكبرى – مصر

(٤) المنار ٤/١١٧ ، والأعمال الكاملة ٤/١١٨

تفسيره بحقائق غريبة من تناسب الآيات وتعلق نظم القرآن بعضه ببعض ، وله في ذلك فكر ثاقب ونفاذ عجيب"[1].

وإلى جانب بيانه لكثير من المناسبات وقف الشيخ محمد عبده معارضاً لبعض الأقوال التي لا يتحقق بها التآلف والانسجام بين بعض آيات الذكر الحكيم ، من هذه الأقوال:

استدراك على قول يؤدى إلى عدم الارتباط بين قوله تعالى:(وإلهكم إله واحد.....)[2]وما قبلها.

أبان الشيخ محمد عبده عن الاتصال بين الآية السابقة وما قبلها - وهو قوله تعالى:(إن الذين يكتمون ما أنزلنا .....)- بقوله : " نطقت الآيات السابقة بأن الذين يكتمون ما أنزله الله من البينات والهدى ملعونون لا ترجى لهم رحمة الله تعالى إلا أن يتوبوا ، فإن هم ماتوا على كتمانهم وما يستلزمه كفرهم من الأعمال كانوا خالدين فى اللعنة.....فناسب بعد هذا أن يبين الله تعالى أن شارع الدين ومحق الحق هو واحد لا يعبد غيره ، ولا تكتم هدايته ، ولا يجعل كلام البشر معياراً على كلامه ، وهو مفيض الرحمة والإحسان ؛ إذ الرحمة من صفاته الكاملة اللازمة ليتذكر أولئك الضالون الكاتمون لبينات الله المؤثرون عليها آراء رؤسائهم وأئمتهم ثقة بهم ، واعتماداً على شفاعتهم أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً ، ويعلموا وجه خطئهم فى كتمان الحق ومعاداة أهله عناداً من الرؤساء ، وتقليداً من المرءوسين".

وبعد بيانه لهذا الوجه من التناسب يرفض القول برأي فى الآية السابقة يقطع الصلة بينها وبين ما قبلها فيقول: " أرأيت هذا الاتصال المحكم بين الآية وما

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي صـ٢٠٠ - المكتبة العصرية صيدا بيروت٢٠٠٨م -١٤٢٩هـ.

(٢) البقرة:١٦٣

قبلها ؟ إن بعض المفسرين قد قطع عراه وفصمها ، وجعل الآية جواباً لقوم قالوا للنبي (ﷺ) : انسب لنا ربك"[1].

وقد ذهب إلى سبب النزول السابق البغوي وابن الجوزي وابن عادل والسيوطي ، وذكره- كذلك- الألوسي [2].

ومع إعجابي بما ذكره الشيخ محمد عبده من وجه الصلة بين الآيات إلا أنه لا مانع في تقديري من أن يكون قوله : (وإلهكم .....) نزل بسبب ما روى ، فلا تباين بين أسباب النزول وبين المناسبات ، فتلك تفتش عن أمر ، وهذه تفتش عن أمر آخر.وقد ذكر الشيخ محمد عبده أنه لا يصح أن تكون الآية جواباً للذين قالوا : انسب لنا ربك ، أو صف لنا ربك ، وذلك " لأن هذا السؤال إنما يصدر عمن لا يعرف شيئاً من صفات الرب العظيم ، أو ممن ينبغي أن يعرف مقدار علم المسئول بهذه الصفات ، ويجب أن يكون جوابه بذكر جميع ما يجب اعتقاده من التنزيه والصفات الثبوتية ، ولم يذكر في الآية إلا الوحدة والرحمة ، وترك ذكر العلم والحكمة والإرادة والقدرة ، وهي صفات لا تعقل الإلوهية إلا بها ، وسببه أن أولئك الكفار لم يكونوا يكتمونها ولا يشركون مع الله أحداً فيها ، وإنما أشركوا في الإلوهية بعبادة غير الله تعالى بالدعاء والنذور والقرابين ، ويستلزم هذا عدم اكتفائهم برحمته".

وأما الاكتفاء بذكر الوحدة والرحمة على الوجه الذي ذكره الشيخ محمد عبده فيقول عنه : " ظاهر لا تطلب البلاغة غيره ؛ لأن الوحدة تذكر أولئك الكافرين بأنهم لا يجدون ملجأ غير الله يقيهم عقوبته ولعنته ، وذكر الرحمة بعدها يرغبهم في التوبة ، ويحول دون يأسهم من فضل الله بعد إيئاسهم ممن اتخذوهم شفعاء ووسطاء عنده"[3].

---

(١) المنار٢/ ٥٦ ، والأعمال الكاملة٤/٣٦٨-٣٦٩

(٢) ينظر تفسير البغوى١/١٣٥، وزاد المسير ١/١٦٧، واللباب ٣/١١٧، والجلالين ١/٣٣ ، وروح المعاني ٢/٢٩ .

(٣) المنار٢/٥٧ ، والأعمال الكاملة٤/٣٧١

ويلاحظ أن صدر كلام الشيخ محمد عبده يمنع أن تكون الآية جواباً لمن قال: [صف لنا ربك] ولكن قوله بعد ذلك : [ولم يذكر فى الآية .....] لا يمنع أن تكون الآية جواباً عن هذا السؤال.

استدراك على قول يؤدى إلى عدم الارتباط بين قوله تعالى:(الذين يبخلون ويأمرون الناس.....)[1] وما قبلها.

ذهب السيوطي إلى أن [الذين] فى الآية السابقة مبتدأ وهم اليهود ، ويبخلون أي بالعلم والمال،وخبر المبتدأ لهم وعيد شديد[2].

وقد علق على ذلك الشيخ محمد عبده – رحمه الله تعالى– بقوله : " وهما قولان : فمن خص البخل بالبخل بالعلم جعل الكلام فى اليهود ، ومن قال هو البخل بالمال لم يجعله فى اليهود ، فالمفسر جمع بين القولين وخص الكلام باليهود"[3].

وإحقاقاً للحق فإن من المفسرين من ذهب إلى ما ذهب إليه السيوطي كالواحدي وأبوحيان والألوسي [4].

ويذكر– رحمه الله – ما يترتب على ما رآه السيوطي فيقول : " واضطر لأجل ذلك إلى قطع الكلام ،وجعل [الذين] مبتدأ خبره محذوف ، وإن لم يوجد فى الكلام ما يدل عليه".

ويقترح الشيخ محمد عبده رأياً على من يحمل الكلام على اليهود ، وهو فى نظره أصح من القطع من ابتداء الآية السابقة فيقول: " ولمن يحمل الكلام على اليهود مندوحة عن هذا القطع إلى أهون منه ، وهو القطع من ابتداء قوله تعالى : [إن الله لا يحب]".

---

(١) النساء:٣٧

(٢) الجلالين ١/١٠٧

(٣) المنار٥/ ٩٨ ، والأعمال الكاملة ٥/٢٣٣

(٤) تفسير الواحدى ١/٢٦٤ ، والبحر المحيط٣/٢٥٦ ، وروح المعانى٥/٣٠

وهذا الرأي عنده لا يسلم – كذلك – من الضعف ، لأنه يفوت التناسب كما دل على ذلك قوله ينتقد بعضاً ممن حمل الآية على اليهود : " ومن العجيب أن مثل ابن جرير الطبري حمل الكلام على اليهود ، كأنه تعالى بعد تلك الأوامر بالإحسان ختم الكلام بقوله : إن الله لا يحب اليهود ، وما هذا بأقرب إلى البلاغة من القطع الأول".

ويوضح المناسب للسياق فيقول : " المتعين فى السياق أن قوله تعالى:(إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) تعليل لما قبله ، وأن قوله (الذين يبخلون)الخ وصف لمن كان مختالاً فخوراً ، أو بدل منه".

ويضيف: " ولم يذكر ما يبخلون به فيخصه بالمال ؛ لأن الإحسان بالوالدين وذي القربى وما عطف عليهم فى الآية لم يكن مراداً به الإحسان بالمال فقط ، بل منه الإحسان بالقول والمعاملة ، فالمراد بالبخل البخل بذلك الإحسان المأمور به ، فهو أعم من البخل بالمال[1].

استدراك على القول بأن قوله تعالى:(قد خلت من قبلكم .....)[2] تمهيد لما يأتي من النهى(ولا تهنوا ولا تحزنوا .....)[3].

ذهب إلى القول السابق الفخر الرازى إذ يقول : " اعلم أن الذي قدمه من قوله:(قد خلت من قبلكم سنن)وقوله: (هذا بيان للناس)[4]كالمقدمة لقوله : (ولا تهنوا ولا تحزنوا)" [5] وكذلك ذهب النيسابوري وابن عادل والسيوطي[6].

وقد وضح الشيخ محمد عبده المعنى بناء على هذا الرأي بقوله : " كأنه – أي الله سبحانه وتعالى– يقول : إن هذا الذي وقع – يقصد هزيمة المسلمين فيَ أحد – لا

---

(١) المنار٥/٩٨ –٩٩ ، والأعمال الكاملة ٥ /٢٣٣ –٢٣٤

(٢) آل عمران:١٣٧

(٣) آل عمران:١٣٩

(٤) آل عمران:١٣٨

(٥) التفسير الكبير١٢/٩

(٦) ينظر تفسير النيسابوري٢٦٤/٢ ، واللباب٥٥٢/٥ ، والجلالين٨٥/١

يصح أن يضعف عزائمكم فإن السنن التي قد خلت من قبلكم تبين لكم كيف كانت مصارعة الحق للباطل ، وكيف ابتلى أهل الحق أحياناً بالخوف والجوع والانكسار في الحرب ، ثم كانت العاقبة لهم ، فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين للرسل المقاومين لهم فإنهم كانوا هم المخذولين المغلوبين ، وكان جند الله هم المنصورين الغالبين ، وإذا كان الأمر – كذلك – فلا تهنوا ولا تحزنوا لما أصابكم في أحد".

وقد ضعف محمد عبده – رحمه الله – القول السابق ؛ بناء على أنه ليس الهدف فقط من قوله تعالى: (قد خلت من قبلكم....) التوطئة لما سيأتي من النهى ، بل الأمر أعم من ذلك كما يدل السياق.

يقول : " هذا رأي ضعيف فإن ذكر السنن بعد آيات متعددة في موضوعات مختلفة تفيد معاني كثيرة فإن الله تعالى نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين بدت لهم بغضاؤهم ، وبين هو لهم مجامع خبثهم وكيدهم ، ثم ذكر النبي والمؤمنين بوقعة أحد وما كان فيها بالإجمال ، وذكرهم بنصره لهم ببدر ، ثم ذكر المتقين وأوصافهم وما وعدوا به ، ثم ذكر بعد ذلك كله مضى السنن في الأمم ، وأنه بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، فذكر السنن بعد ذلك كله يفيد معاني كثيرة تحتاج إلى شرح طويل جداً لا معنى واحداً كما قيل " [1].

استدراك على قول يؤدى إلى عدم الارتباط بين قوله :(فما لكم في المنافقين .....)[2] وما قبله.

يعبر الشيخ محمد عبده عن هذا القول بقوله : " الفاء في قوله تعالى:(فما لكم في المنافقين....) تشعر بارتباط الآية بما قبلها ، وزعم بعضهم [3] أن الفاء للاستئناف ، وهذا لا معنى له ، وإنما يخترع الجاهل تعليلات ومعاني لما لا يفهمه".

---

(١) المنار٤/١٣٨-١٣٩ ، الأعمال الكاملة٥/١٠٦

(٢) النساء:٨٨

(٣) لم أقف على صاحب هذا الرأي ، وأغلب الظن أنه ليس من مفسري القرآن ، ولعله من أحد مشايخ عصره ، الذين طغى عليهم الجمود وقصور الإدراك ، كما يدل على هذا قوله : [وإنما يخترع الجاهل .....].

ويبين ارتباط الآية بما قبلها بقوله : " الآية مرتبطة بما قبلها أشد الارتباط ، إذ الكلام السابق كان فى أحكام القتال حتى ما ورد فى الشفاعة الحسنة والسيئة ، وقد ختمه بقوله: (الله لا إله إلا هو) أي لا إله إلا غيره يخشى ويخاف أو يرجى فتترك تلك الأحكام لأجله ، ثم جاء بهذه الآيات موصولة بما قبلها بالفاء".

ويبين معنى الفاء ودلالتها فى السياق بناء على هذا المعنى فيقول : " وهى – أي الفاء – تفيد تفريع الاستفهام الإنكاري فيها على ما قبله ، أي إذا كان الله تعالى قد أمركم بالقتال فى سبيله وتوعد المبطئين عنه والذين تمنوا تأخير كتابته عليهم ، وإذا كان لا إله غيره فيترك أمره وطاعته لأجله ، فما لكم تترددون فى أمر المنافقين ، وتنقسمون فيهم إلى فئتين" ؟ [1]وهو كلام جيد يدل على تمازج الكلام وتولده من بعضه.

(١) المنار ٣٢١/٥ ، والأعمال الكاملة٢٧٨/٥

المبحث الخامس

استدراكات متنوعة

استدراك على القول بأن الجواب فى قوله تعالى:(ويسألونك ماذا ينفقون....)[1] من قبيل الأسلوب الحكيم[2].

الآية السابقة من الشواهد المعروفة والمشهورة لدى البلاغيين فى باب الأسلوب الحكيم[3].

وقد أوضح الشيخ محمد عبده – رحمه الله تعالى – وجه استشهادهم بها واصفاً له بالزعم ، يقول : " وقد زعم كثير من المفسرين أن الجواب غير مطابق للسؤال؛ لأنه بيان لمن ينفق عليه لا لما ينفق ، وخرجوها على أسلوب الحكيم ، كأنه قال : إنه ينبغي السؤال عمن ينفق عليه ، لا عن جنس ما ينفق أو نوعه".

وقد بين الشيخ محمد عبده أن الداعي إلى هذه النظرة هو التأثر باصطلاح المناطقة ، والبعد عن الأساليب العربية فى دلالة [ما] الاستفهامية.

يقول : " وليس ما قالوا بصواب ، فإن جعل السؤال بـــ[ما] خاصاً بالسؤال عن الماهية والحقيقة من اصطلاح علماء المنطق لا من أساليب العربية ، وليس المراد السؤال عن جنس ما ينفق أو نوعه من ذهب أو فضة أو بر أو شعير، وإنما السؤال عن كيفية الإنفاق وتوجيهه إلى الأحق به ، وذلك مفهوم لكل عربي ، وليس أسلوب القرآن جارياً على مذهب أرسطو فى منطقه ، وإنما هو بلسان عربي

---

(١) البقرة ٢١٩

(٢) عرفه الخطيب بقوله : "وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، بحمل كلامه على خلاف مـــراده ، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب ، بتنزيل ســؤاله منزلـــة غيـــره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له" الإيضاح :٧٩

(٣) ينظر الإيضاح للخطيب صـــ :٨٠

مبين"[1]. وفى موضع آخر يبين أن الجواب كان مطابقاً للسؤال يقول : " لما علمنا أنهم كانوا عالمين بأن الذي أمروا بإنفاقه ما هو وجب أن يقطع بأن مرادهم من قولهم : (ماذا ينفقون) ليس هو طلب الماهية ، بل طلب المصرف ؛ فلهذا حسن هذا الجواب"[2]. وساق الشيخ محمد عبده شاهداً آخر لا يمكن أن تحمل فيه [ما] على السؤال عن الماهية ، ففي قوله تعالى : (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول)[3] يقول : " المعلوم أن البقرة هي البهيمة التي نشأتها وصفتها كذا ، فقوله : (ما هي) لا يمكن حمله على طلب الماهية فتعين أن يكون المراد منه طلب الصفة التي بها تتميز تلك البقرة عن غيرها" [4] ، فبهذا كان الجواب مطابقاً للسؤال.

والناظر فى كلام كثير من المفسرين يجدهم يشيرون إلى أن السؤال كان عن المنفَق ، وكان الجواب صريحاً عن المصرف لأنه أهم ، وتضمن إجمالاً جواباً عن المنفَق كذلك.

يقول الزمخشرى : " فإن قلت كيف طابق الجواب السؤال فى قوله : (قل ما أنفقتم) وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون ، وأجيبوا ببيان المصرف ، قلت : قد تضمن قوله : (ما أنفقتم) بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف ؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها"[5].

وما ذهب إليه الشيخ محمد عبده يعود إلى ما ذكره الرازى ، يقول : " إنه وإن كان السؤال وارداً بلفظ [ما] إلا أن المقصود السؤال عن الكيفية ؛ لأنهم كانوا

---

(١) المنار٢/٣٠٨ ، والأعمال الكاملة٤/٥٦١

(٢) المنار٢/٣٠٨ ، والأعمال الكاملة٤/٥٦٢

(٣) البقرة٧٠-٧١

(٤) المنار٢/٣٠٨ ، والأعمال الكاملة٤/٥٦٢

(٥) الكشاف ١/٢٨٤ ، وينظر البيضاوي ١/٤٩٩ ، والتفسير الكبير ٦/٢٢١ ، وتفسير النسفى١/١٠٣ ، والبرهان في علوم القرآن ٤/٤٣ ، وفتح القدير ١/٢١٦

عالمين أن الذي أمروا به إنفاق مال يخرج قربة إلى الله تعالى ، وإذا كان هذا معلوماً لم ينصرف الوهم أن ذلك المال أي شيء هو؟ وإذا خرج هذا عن أن يكون مراداً تعين المطلوب بالسؤال أن مصرفه أي شيء هو؟ وحينئذ يكون الجواب مطابقاً للسؤال"(١).

استدراك على القول بخفاء فائدة القيد في قوله تعالى:[والمحصنات من النساء](٢).

في الآية السابقة قد يظن أن صيغة جمع المؤنث [المحصنات] مغنية عن التقيد بقوله :[من النساء].

وغرابة هذا القيد أن الشأن في القيد بالحال أن يجيء تخصيصاً للمقيد وتنصيصاً على حال من أحواله ، فإذا هو يأتي دالاً على التعميم(٣).

وقد خفي هذا التقييد عن العديد من الراسخين في العلم ، واعتبروه مشكلاً ، يقول الشيخ محمد عبده : " وقد استشكل ذلك المفسرون حتى روى عن مجاهد أنه قال : لو كنت أعلم من يفسرها لي لضربت إليه أكباد الإبل"(٤).

وروى الطبري أن ابن عباس حين سئل عن هذه الآية لم يقل فيها شيئاً(٥) ، وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي السوداء قال : سألت عكرمة عن هذه الآية [والمحصنات... الخ] فقال : لا أدري(٦).

ونقل أبو حيان عن مكي: " قوله : فائدة قوله : [من النساء] أن المحصنات تقع على الأنفس ، فقوله : [والذين يرمون المحصنات] لو أريد به النساء خاصة لما حد من قذف رجلاً بنص القرآن ، وأجمعوا على أن حده بهذا النص"(٧).

---

(١) تفسير الرازي٦/٢٢١

(٢) النساء:٢٤

(٣) من أسرار القيد بالحال في القرآن الكريم صـ :٢

(٤) المنار ٥/٤ ، والأعمال الكاملة٤/٢١٢ ، وينظر تفسير الطبري٥/٧ ، والمحرر الوجيز٢/٣٥

(٥) تفسير الطبري:٥/٧

(٦) روح المعاني٥//٢

(٧) البحر المحيط:٣/٢٢٢

وقد رد هذا القول، يقول أبو السعود : " وفائدته – أي القيد– تأكيد عمومها لا دفع شمولها للرجال بناء على كونها صفة للأنفس كما توهم" (١).

وقد علق الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله : " قال بعضهم : النكتة فى ذلك تأكيد العموم ، وليس هذا القول كافياً ولا وافياً".

ولذلك يأخذ فى توضيح وتفصيل هذه الفائدة بقوله : " وعندي أن هذا القيد يكاد يكون بدهياً ، فإن لفظ المحصنات قد يراد به العفيفات أو المسلمات ، فلو لم يقل هاهنا [من النساء] لتوهم أن المحصنات إنما يحرم نكاحهن إذا كن مسلمات فأفاد هذا القيد العموم والإطلاق ، أي أن عقد الزوجية محترم مطلقاً لا فرق فيه بين المؤمنات والكافرات والحرائر والمملوكات ، فيحرم تزوج أية امرأة فى عصمة رجل وحصنه" (٢).

وهكذا استطاع الشيخ محمد عبده أن يجلى فائدة هذا القيد بصورة أوضح وأوفى بكثير مما ذكر سلفاً.

ولا شك أن هذه الفائدة نكتة جيدة تدل على عقلية راجحة وذوق مستقيم من الشيخ رحمه الله.

استدراك على اعتبار الرجاء فى كلام الله للتحقيق.

ذهب كثير من أهل العلم إلى اعتبار الرجاء فى القرآن الكريم للتحقيق والوجوب ، يقول النسفي فى [لعل] فى قوله تعالى :(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)(٣): " و[لعل] للترجي والإطماع ، ولكنه إطماع من كريم فيجرى مجرى وعده المحتوم وفاؤه " (٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم٢/١٦٣ ، وينظر روح المعانى٥/٢

(٢) المنار٥/٤ ،والأعمال الكاملة٤/٢١٢

(٣) البقرة:٢١

(٤) تفسير النسفى١/٢٦

ويقول ابن عطية: " ولعل فى هذه الآية [1] قال فيها كثير من المفسرين : هي بمعنى إيجاب التقوى ، وليست من الله تعالى بمعنى ترج وتوقع "[2].

ويقول الزركشي:" [عسى] و[لعل]من الله واجبتان ، وإن كانتا رجاء وطمعاً فى كلام المخلوقين ؛ لأن الخلق هم الذين يعرض لهم الشكوك والظنون ، والبارئ منزه عن ذلك"[3] وكذلك ذهب السيوطي[4].وقد عارض الشيخ محمد عبده اعتبار [لعل] و[عسى] فى كلامه للتحقيق ، واعتبره خطأ شائعاً .

يقول : "الشائع أن [لعل] للترجي فى ذاتها ، وإذا وقعت فى كلام الله تعالى يكون معناها التحقيق".

وبين الداعي إلى الوقوع فى هذا الخطأ بقوله : " وغرض القائلين بهذا تنزيه الله سبحانه عن الترجي بمعناه اللغوي ، ولكنه رمي للكلام بدون بيان"[5].

وأيضاً أشار إلى هذا فى دلالة [عسى] فى قوله تعالى :[فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم] يقول : " قالوا :أن [عسى] فى كلام الله للتحقيق ، ولا يصح على إطلاقه ؛ لأنه يسلب الكلمة معناها ، فكأنه لا محل لها"[6].

فمحمد عبده يرفض دلالة [لعل] و[عسى] على التحقيق ؛ لأنه قول ملقى بدون تحقيق وتدقيق وبدون بحث فى الأسرار البيانية التي تدعو لاختيار كلمة دون أخرى.

وما ذكره محمد عبده من تعليل لرفض دلالة [لعل] و[عسى] على التحقيق يتفق مع قول الخطابي- رحمه الله- : " اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها

---

(١) يقصد الآية السابقة.

(٢) المحرر الوجيز ١/١٠٥

(٣) البرهان ٤/١٥٨-١٥٩

(٤) الجلالين ١/١٦٦

(٥) المنار ١/١٨٦، والأعمال الكاملة ٤/٩٢

(٦) المنار ٥/٣٥٨ ، والأعمال الكاملة ٥/٢٥٨

هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكان غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون معه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[1] وإحقاقاً للحق فإن العديد من العلماء السابقين ممن قال بدلالة [لعل] و[عسى] فى كلامه على التحقيق يشيرون إلى مزايا بيانية فى استخدامهما ، فابن عطية والنسفي- مثلاً- ذكرا فى الآية السابقة أن الترجي والتوقع إنما هو فى حيز البشر، فكأنه قيل لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم أن تتقوا[2].

والزركشي- رحمه الله - يذكر النكتة السابقة لاستخدام[لعل]و [عسى] ويطبقها على العديد من الآيات ، كقوله تعالى:(فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده)[3]وقوله تعالى:(فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى][4].

ويوضح الشيخ محمد عبده معنى الترجي فى الآية موضع المسألة بقوله : " وحقيقته أن [لعل] للترجي ، ولكنها تستعمل للإعداد والتهيئة للشيء ، وفى هذا معنى الترجي.....وهو يستلزم التحقيق ؛ لأن الإعداد بما تأتى "لعل"بعده أمر محقق لا ريبة فيه".

ويطبق - رحمه الله- المعنى السابق لـ [لعل] على الآية محل الشاهد فيقول: " العبادة على الوجه الذي أرشدت إليه الآية من ملاحظة معنى الربوبية الخ ما تقدم تطبع فى النفس خشية الله وتعظيمه ومراقبته ، وتعلى همة العابد ، وتقوى عزيمته وإرادته ، فتزكو نفسه وتنفر من المعاصي والرذائل ، وتألف الطاعات والفضائل وهذه هي التقوى ، وإذا قلنا : إن الرجاء متعلق بالناس ، فالإعداد فيه ظاهر ومتحقق ، إذ لو لم يخلقهم مستعدين للتقوى لما اتقاه منهم أحد"[5].ودلالة

---

(١) رسالة في بيان إعجاز القرآن "ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"- صـ : ٢٩

(٢) ينظر المحرر الوجيز١/١٠٥، وتفسير النسفي١/٢٦

(٣) المائدة:٥٢

(٤) طه:٤٤ ، وينظرالبرهان٤/١٥٩

(٥) المنار١/١٨٦ ، والأعمال الكاملة٤/٩٢- ٩٣

[لعل] على الإعداد والتهيئة فى هذه الآية كما استخرجها محمد عبده دلالة جيدة ، فهي تعكس مدى المسئولية الملقاة على عاتق العباد ما داموا مهيئين للتقوى ومعدين لها.وما ذكره الشيخ محمد عبده من نكتة فى اختيار [لعل] الدالة على الترجي فى هذه الآية قريب من أحد الوجوه التي فسر بها الرازى استخدام [لعل]فى الآية ،يقول – رحمه الله –: " ورابعها– أي رابع هذه الوجوه– أنه تعالى فعل بالمكلفين ما لو فعل غيره لاقتضى رجاء حصول المقصود ؛ لأنه تعالى لما أعطاهم القدرة على الخير والشر، وخلق لهم العقول الهادية ، وأزاح أعذارهم فكل من فعل بغيره ذلك فإنه يرجى منه حصول المقصود"(١).

استدراك على إنكار دلالة العطف بالواو بين الصفات على كمال الموصوفين فى الاتصاف بالصفات.

ذهب الزمخشرى إلى أن الواو المتوسطة بين الصفات فى قوله تعالى : (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار(٢) للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها(٣).

وهذا القول قد ارتضاه الكثير من العلماء ، ورأوا – أيضاً– فى هذا النوع من العطف إشعاراً بأن كل صفة مستقلة بالمدح ، ومن هؤلاء العلماء : البيضاوي والرازي والنسفي وابن عادل والحرالي وأبو السعود والألوسي (٤).

وأما أبو حيان فبعد أن ساق رأي الزمخشرى السابق قال : " ولا نعلم العطف فى الصفة بالواو يدل على الكمال"(٥) وقد رد هذا القول بأن علماء البيان علموه(٦).

---

(١) التفسير الكبير ١٥/٤

(٢) آل عمران : ١٧

(٣) الكشاف ٣٧١/١

(٤) ينظر تفسير البيضاوى ١٦/٢، والتفسير الكبير ١٧٧/٧ ، وتفسير النسفي ١٤٥/١ ، واللباب ٩١/٥ ، ونظم الدرر ٣٨/٢ ، وإرشاد العقل السليم ١٦/٢ ، وروح المعانى ١٠٣/٣

(٥) البحر المحيط ٤١٨/٢

(٦) ينظر اللباب ٩١/٥ ، وروح المعاني ١٠٣/٣

وقد رفض الشيخ محمد عبده – كذلك – الإنكار السابق من أبى حيان ، إذ يقول : " وقال غيره – أي غير الزمخشرى وهو أبو حيان– إننا لا نعهد من معاني الواو الكمال فى معطوفاتها ، ومن عنده ذوق فى اللسان يجد فى نفسه فرقاً بين المعطوف وغيره ، ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر:

ولو رمحاً واحداً لاتقيته ولكنه رمح وثان وثالث

وإن بيان الفرق ربما لا تفي به العبارة إلا مع الاستعانة بالسليقة" [1] فالذوق هو الذي يدل على هذا المعنى للعطف عند محمد عبده.ويضيف : " ويمكن تقريب ذلك بأن يقال :إن الأوصاف المسرودة بغير عطف كالوصف الواحد ، وأما عطفها فيفيد أن كل واحد منها وصف مستقل"[2].

استدراك على القول بأن قوله تعالى:(هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)[3] من قبيل التشبيه.

ذهب كثير من العلماء إلى أن قوله تعالى:(هن لباس لكم....) تشبيه للمرأة بالنسبة للرجل باللباس ، وللرجل بالنسبة للمرأة باللباس أيضاً.

قال الزمخشرى:" لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه فى عناقه شبه باللباس المشتمل عليه، قال الجعدى:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباساً[4]ويرى الشيخ محمد عبده أن لفظ لباس فى الآية السابقة مصدر لابسه بمعنى خالطه ، يقول فى تفسير الآية السابقة: " قول مستأنف سيق لبيان سبب الحكم ، أي إذا كان بينكم وبينهن

---

(١) المنار٣/٢٥٣ ، والأعمال الكاملة٥/١٩

(٢) المنار٣/٢٥٣ ، والأعمال الكاملة٥/١٩

(٣) البقرة:١٨٧

(٤) الكشاف١/٢٥٧ ، وينظر المحرر الوجيز ١/٢٥٧ ، وتفسير البيضاوى١/٤٦٨ ، والتفسير الكبير٥/٩٠-٩١ ، والمثل السائر١/٣٨٣ ، وتفسير القرطبى٢/١٦، والبحر المحيط٢/٥٥ ، والنيسابورى١/٥١٢ ، وروح المعانى٢/٦٥ .

هذه الملابسة والمخالطة فإن اجتنابهن عسر عليكم ، فلهذا رخص لكم مباشرتهن ليلة الصيام قاله صاحب الكشاف ، فهو يرى أن لفظ لباس – هنا- مصدر لابسه بمعنى خالطه وعرف دخائله ، لا بمعنى ما ورد من إطلاق اللباس والإزار على المرأة ، وهذا هو الرأي الذي اختار"(١).

وما ذهب إليه الشيخ محمد عبده أدل على علاقة الاختلاط التي تكون بين الزوجين، إذ يقتضى ما ذهب إليه أن يكون كل من التعبيرين مجازاً عقلياً ، فقد أخبر فيهما عن اسم الذات بالمصدر، أي هن مجسدين من الملابسة والمخالطة لكم، وأنتم كذلك. وهاتان الدلالتان للمجازين العقليين لا يؤديهما التشبيه للمرأة باللباس، وتشبيه الرجل باللباس ، إذ لا يصلان إلى المبالغة السابقة التي أبرزها كل من المجازين.والشيخ محمد عبده يعزو هذا القول إلى الزمخشرى ، ولكن ما سبق أن نقلته عن الزمخشرى يدل على نقيض ذلك .

ولعله فهم أنه يذهب إلى هذا الرأي من بيانه لموقع الآية السابقة، إذ يقول: (فإن قلت : ما موقع قوله : (هن لباس لكم) قلت : هو استئناف كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهم مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن ، وصعب عليكم اجتنابهن ؛ فلذلك رخص لكم فى مباشرتهن"(٢).

استدراك على القول بأن الكتابة حقيقة فى قوله تعالى:(سنكتب ما قالوا)(٣).

جوز العديد من المفسرين أن تكون الكتابة فى الآية السابقة على سبيل الحقيقة ، والمعنى عندهم : سنكتبه فى صحائف الكتبة ، ومن هؤلاء : الزمخشرى والبيضاوي والنسفي وابن عادل والسيوطي وأبو السعود والشوكانى(٤)وقد نقض

(١) المنار٢/ ١٧٦ ، والأعمال الكاملة٤/٤٦٧

(٢) الكشاف١/٢٥٧

(٣) آل عمران : ١٨١

(٤) ينظر الكشاف١/٤٥٧ ، وتفسير البيضاوى٢/١٢٣ ، وتفسير النسفي١/١٩٥ ، واللباب٦/٨٩ ،والجلالين١/٩٣ ، وإرشاد العقل السليم٢/١٢١، وفتح القدير١/٤٠٦

الشيخ محمد عبده هذا الرأي يقول:" قال مفسرنا- أي السيوطي- كغيره : أي نأمر بكتابته، وغفلوا عن قوله :(وقتلهم الأنبياء بغير حق) فإنه كان من سلفهم ، فما معنى التعبير عن كتابته بصيغة الاستقبال؟ لا بد من تفسيره بوجه يصح في الأمرين"[1]فدلالة السين على الاستقبال عنده تمنع من حمل الكتابة على الحقيقة ، وبيان ذلك : أنه كيف يتأتى أن تكون كتابة الفعل فى الزمن المستقبل مع أن الفعل قد وقع فى الزمن الماضي ، بل المنطقي أن تكون الكتابة قد وقعت.ويحمل - رحمه الله - هذا التعبير على الكناية كما يدل قوله : " والمعنى الصحيح لهذه الكلمة سنعاقبهم على ذلك حتماً ، فإن الكتابة - هنا- عبارة عن حفظه عليهم ، ويراد به لازمه وهو العقوبة عليه ، والتوعد بحفظ الذنب وكتابته وإرادة العقوبة عليه شائع مستعمل حتى اليوم ، فلا يحتاج إلى دقة نظر"[2].

ويبدو فى تقديري السر فى العدول عن الحقيقة إلى الكناية الإشارة إلى أن العقوبة على مقدار ما ارتكبوه من جرم ، وأنه لن يتبدد شيء ارتكبوه بلا عقوبة ما دام مقيداً محفوظاً.

ويعلل لاختيار لفظ الكتابة دون لفظ الحفظ فيقول : " ولفظ الكتابة آكد من لفظ الحفظ ؛ لما فيه من معنى الاستتباب وأمن النسيان"[3].

فهو يعلل لاختيار لفظ دون لفظ فى الكناية ، وكان جديراً به ألا يقتصر على ذلك ، بل قبله يعلل تعليلاً بيانياً لإيثار اللفظ المحقق للكناية دون اللفظ المحقق للحقيقة ما دام فى سياق معارضته لحمل اللفظ على الحقيقة.

---

(١) المنار٤/٢٦٣ ، والأعمال الكاملة٥/١٥٣

(٢) نفس المرجعين السابقين والصفحتين

(٣)المنار٤/٢٦٣ ، والأعمال الكاملة٥/١٥٣

الخاتمة

وتتضمن أهم النتائج وهي ما يأتي:

- توقف الشيخ محمد عبده أمام بعض المفردات القرآنية التي ظن البعض أنها متساوية مع أخرى في الدلالة ، واستنكره غاية الاستنكار موضحاً مناسبة اللفظ القرآني دون غيره لسياقه.

ومن هذا استدراكه على التسوية بين [الرحمن]و[الرحيم] في الدلالة ، إذ ذهب إلى أن [الرحمن] يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، والرحيم يدل على منشأ الرحمة أو منبعها.

ولذلك عارض الترادف واشتد في إنكاره ، وبين أن الكلمتين المترادفتين الواردتين على سبيل التوكيد لابد أن يكون في كل منهما معنى مغاير لما في الأخرى يحقق فائدة ، فالتوكيد عنده لا يعني أن تكون دلالة الكلمة المؤكِدة هي ذاتها دلالة الكلمة المؤكَدة.

- عارض الشيخ محمد عبده بعض النكات لاختيار لفظ دون آخر، ومن هذا استدراكه على القول بأن إفراد السمع وجمع الأبصار؛ لأن السمع مصدر والمصدر لا يجمع ، وقد رده بأن البصر مصدر ومع ذلك قد جمع ، وله رحمه الله لطيفة بلاغية وراء ذلك تدل على بصيرة نافذة (١)

- اشتد رحمه الله على القول بزيادة بعض الحروف والكلمات في القرآن واستكبره، فكان يخطئ كل من يقول : إن في القرآن كلمة أو حرفاً زائداً ، ومن ذلك استدراكه على القول بزيادة الكاف في قوله : [أو كالذي مر....] ، وقد ذهب إلى أن الكاف جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد على وقوع البعث ، وعدم انحصارها فيما ذكر.

---

(١) ينظر البحث صـ : ١٥

- وقف الشيخ محمد عبده معارضاً لبعض النكات للتقديم في القرآن مما ذكره بعض المفسرين ، والتي وجد أنها تنأى عن البلاغة ، وتنأى عما يؤديه التقديم من فوائد بيانية.

وأكثر ما كان يعارضه في باب التقديم القول في بعض صور من التقديم في القرآن أنها لمراعاة الفاصلة ؛ إذ ليس من الجائز عنده أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة ؛ لأن هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس ، فكيف يقع في كلام الله تعالى.

- رأى محمد عبده أن وجوه الاتصال بين الآيات ، وما فيها من دقائق المناسبات هى ضرب من ضروب البلاغة ، وفن من فنون الإعجاز ، إذا أمكن للبشر الإشراف عليه ، فلا يمكنهم البلوغ إليه ؛ ولذا تصدى للعديد من الأقوال التي يترتب عليها فقد التناسب بين آي الذكر الحكيم.

- عارض - رحمه الله- القول المشهور بأن الجواب في قوله تعالى : [ويسألونك ماذا ينفقون.....] من قبيل الأسلوب الحكيم ، وقد بين أن الداعي إلى القول السابق هو التأثر باصطلاح المناطقة ، والبعد عن الأساليب العربية في دلالة [ما] الاستفهامية.

- كذلك لم يوافق على القول بأن الرجاء في القرآن الكريم للتحقيق والوجوب ، واعتبره خطأ شائعاً.

وبين أن الداعي إلى الوقوع في هذا الخطأ هو رغبة من قال به في تنزيه الله سبحانه عن الترجي بمعناه اللغوي.

وذكر بعض اللفتات البيانية لاستخدام[لعل] و[عسى] في القرآن الكريم بمعناهما الحقيقي (الرجاء) ، والتي لا يؤديها القول بأنهما للوجوب .

وإحقاقاً للحق فإن العديد من العلماء ممن قال بدلالة [لعل] و[عسى] فى كلامه تعالى على التحقيق يشيرون أيضاً إلى مزايا بيانية فى استخدامهما.

- أنكر محمد عبده أن يكون قوله تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) من قبيل التشبيه ، ورأى أن لفظ لباس فى الآية السابقة مصدر لابسه بمعنى خالطه.

وما ذهب إليه الشيخ محمد عبده أدل على علاقة الاختلاط والترابط التي تكون بين الزوجين ، إذ يقتضى ما ذهب إليه أن يكون كل من التعبيرين مجازاً عقلياً ، فقد أخبر فيهما عن اسم الذات بالمصدر، أي هن مجسدين من الملابسة والمخالطة لكم ، وأنتم كذلك.

قائمة المصادر

١- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي- تحقيق : سعيد المندوب ، دار الفكر بيروت١٤١٦هـ -١٩٩٦م- الطبعة الأولى.

٢- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبو السعود- دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٤- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ /محمد عبده - تحقيق وتقديم : د/محمد عمارة- دار الشروق – الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي- دار الفكر العربي.

٦- الإيضاح للخطيب - دار الكتب العلمية بيروت .

٧- بحر العلوم لأبو الليث السمرقندي- تحقيق : د/محمود مطرجي- دار الفكر بيروت.

٨- البحر المحيط لأبوحيان الأندلسي- تحقيق : أحمد عبد الموجود وآخرون- دار الكتب العلمية- بيروت ، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

٩- بدائع الفوائد لابن القيم – تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرين- مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة المكرمة١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٠- البرهان في علوم القرآن للزركشي- تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة بيروت ١٣٩١هـ .

١١- البرهان في علوم القرآن للزركشي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه- الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧ م.

١٢- بيان إعجاز القرآن للخطابي - ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن- تحقيق: محمد خلف الله و د/محمد زغلول سلام - ط دار المعارف - الطبعة الثانية ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٨ م .

١٣- التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى تحقيق : محمد على البجاوي- طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٤- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع تونس١٩٩٧ م.

١٥- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار- الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان- الطبعة الثانية.

١٦- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية :٣١٢، د/أحمد سعد محمد،مكتبة الآداب.

١٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبرى- دار الفكر بيروت

١٨- روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٩- سر صناعة الإعراب لابن جني ٢٦٨/١، تحقيق : د/حسن هنداوي، الناشر : دار القلم - دمشق - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، الطبعة الأولى.

٢٠- سلامة الحرف من الزيادة والحذف ـ د / فضل حسن عباس - بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بالكويت - السنة الرابعة - العدد التاسع ، ربيع الآخر١٤٠٨هـ.

٢١- شرح المفصل لابن يعيش، مكتبة المتنبي بالقاهرة.

٢٢- شفاء العليل لابن القيم الجوزية- تحقيق: محمد بدر الدين الحلبي - دار الفكر بيروت١٣٩٨هـ .

٢٣- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري - تحقيق:أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين- الطبعة الرابعة ١٩٩٠م .

٢٤- الطراز للعلوى٣/٤٧- تحقيق : د/عبد الحميد هنداوي - المكتبة العصرية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢ م.

٢٥- عبقري الإصلاح والتعليم -الإمام محمد عبده- تأليف الأستاذ : عباس محمود العقاد- دار الكتاب العربي لبنان ١٩٧١ م.

٢٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ـ تحقيق : زكريا عمران- دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٦هـ -١٩٩٦ م .

٢٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ـ دار الفكر بيروت.

٢٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى- تحقيق : عبد الرازق عبد المهدي- دار إحياء التراث العربي -بيروت.٢٩- اللباب فى علوم الكتاب لابن عادل الدمشقى- تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض -دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩ هـ -١٩٨٩ م

٣٠- معاني القرآن للأخفش: تحقيق : فائز فارس- الطبعة الثانية١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٣١- معاني القرآن وإعرابه للزجاج- تحقيق: د/عبد الجليل عبده شلبي - الطبعة الأولى عالم الكتب بيروت١٤٠٨هـ-١٩٨٨ م.

٣٢ - معاني القرآن وإعرابه للزجاج ـ تحقيق : د/عبد الجليل عبده شلبي- دار الحديث القاهرة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م.

٣٣- مفاتيح الغيب للرازي- دار الكتب العربية بيروت ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م- الطبعة الأولى.

٣٤- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى – تحقيق : محمد سيد كيلانى – دار المعرفة – لبنان.

٣٥- من أسرار القيد بالحال فى النظم القرآني "بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة" للدكتور/ محمد الأمين الخضري- العدد (١١) ١٤١٣هـ .